

سلسلة  
تاريخ  
لبنان

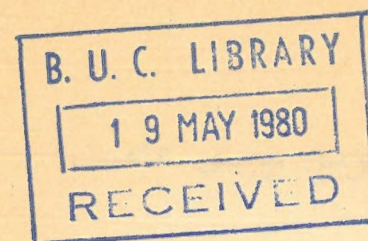
# صفحات من تاريخ جبل عامل

المجلس الثقافي للبنان الجنوبي

دار الفارابي



A  
958.92  
M2335



# صفحات من تاريخ جبل عامل

١٠٠  
٥٥  
سنة

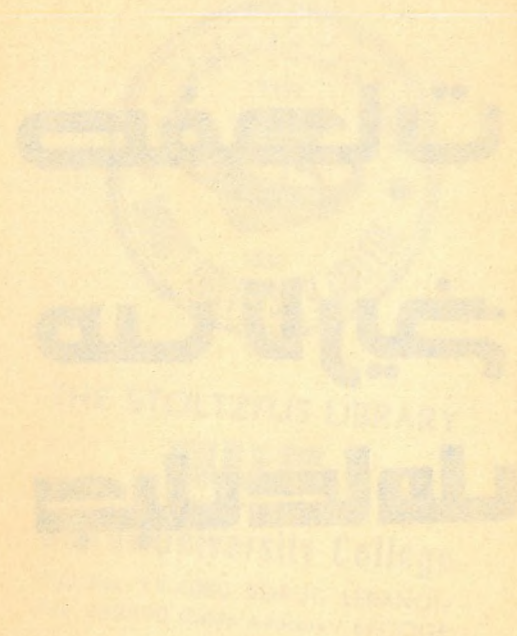
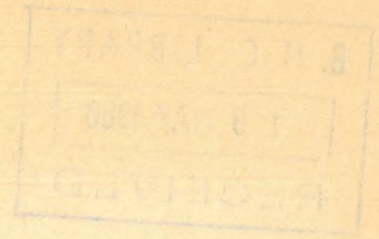


## صفحات من تاريخ جبل عامل

- د. ابراهيم بيضون  
د. محمد مخزوم  
العقيد د. ياسين سويد  
د. منذر جابر  
د. مسعود ضاهر  
الاستاذ سليمان تقي الدين

١٩٧٩

المجلس الثقافي للبنان الجنوبي





## على سبيل التقديم

كان من الصعوبة بمكان يقرب من المستحيل أن يستأنف المجلس الثقافي للبنان الجنوبي نشاطه المتعدد الوجوه ويعود الى سابق عهده من الحضور المؤثر على الساحة الثقافية سواء في بيروت أو في حواضر الجنوب اللبناني ، وذلك بسبب الظروف البالغة القسوة الآخذة بخناق الوطن برمته ولا سيما على الجهة الجنوبية منه .

وعلى الرغم من كثرة الصعوبات العامة التي انجبتها تلك الظروف فقد اعترضت «المجلس» صعوبات خاصة لا تقل بأسا عن تلك العامة وان نتجتا معا عن العلة نفسها نعني المحنة الضارية التي ما انفكت تشد بانثيابها على مفاصل الوطن ومساحة وجوده .

نقول على الرغم من هذه الصعوبات وتلك قررت الهيئة الادارية « للمجلس » العودة الى بذل المزيد من الجهد لتذليل ما تيسر من العقبات والسير ، من جديد ، على طريق الانتاج في حدود الامكان .

وبيوم اتخذنا هذا القرار اخترنا أن يكون الجنوب بأمسه ، القريب والبعيد ، موضوعا محوريا لمختلف نشاطات « المجلس » خلال السنة الجارية .

وكان الفصل الاول من هذا الاختيار « صفحات من تاريخ جبل عامل » لتكون عنوانا عريضا لسلسلة من المحاضرات ، نبدا بها موسمنا الصيفي على أن ترصد بكاملها لوجه الجنوب في الماضي أو ، بكلمة أصح ، لوجه « جبل عامل » هذا الاسم التاريخي الذي حملته هذه المنطقة من لبنان عبر العصور .

١٩٧٩ جميع الحقوق محفوظة

دار الفارابي - ص.ب ٣١٨١ - بيروت  
الطبعة الاولى -

تشرين الثاني ١٩٧٩



وقد حرصنا ، حرصا شديدا ، أن نخرج بالمحاضرات عن دائرة الخطابة أو الاستعراض المجاني ، من هنا عهدنا بكتابتها والقائها الى نخبة من الاساتذة الجامعيين المختصين على رجاء أن يأتي العمل ليس بمستوى طموح « المجلس » وحسب بل وبمستوى المرحلة التي نخوض غمارها على الجبهتين الوطنية والقومية وما تستدعيه ، هذه المرحلة ، من صدق في الالتزام وصحة في الرؤية وموضوعية في المعالجة وشجاعة في اتخاذ الموقف .

وقبل أن نبدأ بتقديم « صفحات من تاريخ جبل عامل » من على منبر اتحاد الكتاب اللبنانيين ما كان لنا أن نقدر ، سلفا ، المنزلة العالية التي حظيت بها هذه « الصفحات » لدى الرأي العام الوطني والتقدمي على وجه العموم وفي وسط المثقفين وأهل المعرفة على وجه الخصوص .

وقد تجلت هذه المنزلة في اشكال عديدة سواء في الحضور الكثيف لسماع المحاضرات — « الصفحات » أو في حرارة المناقشات التي كانت تعقب كل محاضرة وتستمر طويلا أو في التعليقات المختلفة والمقتطفات التي كانت تحفل بها الصفحات الثقافية في الجرائد اليومية والمجلات الاسبوعية وذلك على مدار ستة أسابيع متلاحقة من أيام الصيف البيروتي .

وعندنا أن النجاح الذي احرزته « الصفحات » ، وهي تقدم للجمهور في محاضرات تلقى على مسامعه ، يعود الى جملة عوامل يأتي في طليعتها :

اولا : المكانة التي يحتلها الجنوب ، هذه الايام في أفئدة المواطنين الشرفاء ، وهم الكثرة الكاثرة من أبناء هذا البلد ، رغم التناقض في ظاهر الحال ، لا سيما وأن الجنوب يشكل في هذه المرحلة جبهة المواجهة الوحيدة على ساحة الصراع في المنطقة العربية عموما وليس في لبنان فقط . وهل في الناس من يجهل الثمن الغالي الذي ما برح يدفعه الجنوبي من أجل القضية الوطنية — القومية الاولى واقتداء لبقية أجزاء الوطن وسائر الاقطار العربية ؟..

ثانيا : المستوى العلمي الرصين الذي استوت عليه تلك المحاضرات ، الامر الذي هيا لها تلك المنزلة المرموقة في نفوس جميع

من اتبح لهم الوقوف على مضامينها سواء بالحضور الشخصي أو بالاطلاع على ملخصاتها المنشورة في الصحف والمجلات ، وهذا بالإضافة الى تقدير المعلقين ونوي الاختصاص .

ثالثا : التشجيع الحار الذي استقبل به جمهور المستمعين والقراء هذا العمل المتواضع يقوم به المجلس الثقافي للبنان الجنوبي في سياق عودته الى سابق نشاطه خدمة للجنوب وقضاياها وتعزيزا للثقافة الوطنية .

رابعا : الاهتمام الكريم الذي أولته الصحافة وأجهزة الاعلام الاخرى لهذه الصفحات من تاريخ « جبل عامل » فقد افسحت في المجال لصوت « المجلس » أن يمتد بعيدا ناشرا مضمون « الصفحات » في الكثير من الاوساط الثقافية والاجتماعية ، ولا شك أن في ذلك خدمة جليلة ليس للجنوب فقط وانما للأجيال اللبنانية من أجل أن تمتلك مزيدا من المعرفة عن تاريخ لبنان بأجزائه جميعا .

ونحن ، اليوم ، اذ ننشر في الناس هذه المحاضرات بكتاب خاص فليس قصدنا من وراء ذلك أن تقع هذه « الصفحات » بين أيدي المزيد من الاصدقاء وطلاب المعرفة ، وحسب ، بل قصدنا أيضا أن نستدرج الاكفاء الى مزيد من النقاش الموضوعي حول الجنوب تاريخا وقضية .

وهنا لا يسعنا الا الاعتراف بفضل الاصدقاء الذين سبق لهم وشاركوا في النقاش الذي كان يدور حول المحاضرات بعد الفراغ من قراءتها وسواء جاءت المشاركة بصيغة التقدير والتشجيع أو النقد البناء . ثم الى هؤلاء الاصدقاء يعود الفضل أيضا في إثارة عدد من الاسئلة التي لم يتسع المجال للإجابة عنها في حينها . وقد يتصدر تلك الاسئلة جميعا السؤال المحوري التالي :

لماذا هذه « الصفحات من تاريخ جبل عامل » في هذا الوقت بالذات ؟؟

ربما يفسح المجال الان للجواب المطلوب أو ، بكلمة أصح ، لمحاولة الجواب المطلوب .



نعتقد ، أولا ، بأن مجتمعنا ، سواء في الجنوب اللبناني أو في خارجه ، لهو اليوم أحوج منه في أي يوم مضى ، الى حصانة رأسخة في الفكر والوجدان يتسلح بها ويقاوم حملات التشويه والتزوير الاعلامية وفنون الحرب النفسية التي تشنها علينا القوى الامبريالية - الصهيونية بتنظيم بالغ الدقة ونفس طويل واستخدام لحدث المكتشفات في عالم الدعاية والتحريض المضاد . ولعل هذه الحرب وتلك الحملات أشد فتكا وتدميرا ، من حيث الجوهر ، من غزوات الإبادة الجماعية التي ما انفكت اسرائيل تشنها على جنوب لبنان ، بروح همجية منفelte ، منذ سنوات عدة .

ونعتقد ، ثانيا ، بأن احدى أهم الضرورات التي يقتضيها تحصين فكرنا والوجدان في وجه تلك الحملات السوداء هي في إعادة امتلاك تاريخنا وذلك ليس من أجل أن نستنطقه قول الحقيقة فقط ، بل ولناخذ منه الدرس والعبرة ثم لنترود من فصوله المضيئة بالطاقة على مواصلة النضال والايهان بحتمية النصر مهما ادلهمت أرجاء الساحة واستطال زمن الصراع .

ونعتقد ، ثالثا ، بأن تراث كل شعب من الشعوب هو ثروة قومية وسلاح دفاعي ومن شأنه أن يشكل الشخصية المتميزة لهذا الشعب ويمنحها خصائص المقاومة والثورة على سلطان الانحلال أو الاحتواء فالإلغاء . ومن شأنه أيضا أن يشدد من روابط هذا الشعب بأرضه ويعزز من تجذره في ترابها . بيد أن الشرط المطلوب ، في هذا الصدد ، هو معرفة هذا التراث - لا سيما الجانب المضيء منه - معرفة نقدية متماسكة فلا تستخفها أمجاد الماضي وتقعددها عن كل مكرمة ولا تسلمها الهزائم الى حال من اليأس والفرار من الماضي والحاضر سواء بسواء .

ومما لا ريب فيه أن معرفة التراث اذا ما قامت على هذا الاساس غدت من أمضى الاسلحة في أيدي الجماهير تصد بها رياح الاقتلاع

أو اللاحق وتحصن وجودها على أرضها وتمدها بالقدره على الصمود والجرأة على التحدي .

فانطلاقا من هذا الاعتقاد الراسخ ،

ولكون الجنوب تاريخا ما برح مجهولا عند الكثرة من المواطنين - ولا نستثني أبناءه بالذات - ومرد ذلك يعود لجملة أسباب يأتي في طبيعتها :

١ - الانحياز الفاضح في نظام التعليم اللبناني بالإضافة الى هشاشة بنائه وتخلف منطقه لا سيما في معالجة مادة التاريخ .

٢ - الذاتية المحاذية أحيانا تخوم العنصرية التي يصدر عنها كتاب التاريخ اللبناني في معظمهم ، لكأن الجهر بالحقيقة التاريخية من شأنه أن يخلخل الأركان التي اجتهدوا في إقامتها للكيان ويهدد الوطن في حاضره والمستقبل . في حين أن حرص هؤلاء على طمس الحقيقة يعود ، بوجه عام ، الى استثثارهم بمفانم « النظام » وليس « الكيان » والي شدة حرصهم على الاستمرار في هذا الاستثثار .

٣ - نقصي أو قصور المؤسسات السياسية والتربوية والثقافية عموما على الساحة الوطنية في أمر النهوض بهذا الواجب الوطني أي واجب الكشف عن الحقيقة التاريخية للبنان بكل مناطقه كشفا لا تردد فيه ولا حذر أو خشية ، فليس كالمواجهة الموضوعية الجريئة ما يؤكد حقيقة لبنان ويعزز وحدته ويحدد علاقته العضوية له العربي .

ثم لكون الجنوب بخاصة ولبنان بعامة موضوعا على جدول أعمال التجزئة الطائفية - العنصرية من قبل التحالف الصهيوني - الانعزالي وقد بوشر فعلا بتنفيذ البند الأول من هذا الجدول على أرض الجنوب وذلك باقامة « الجيب » الصهيوني في الشريط الحدودي المحتل تحت عنوان مكشوف : « دولة لبنان الحر » ...



نقول :

انطلاقاً من هذا الاعتقاد ،

ولهذه الاسباب التي ذكرنا ولغيرها من اسباب لا يتسع المجال لذكرها الان ، كان القرار الذي اتخذناه في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي بالعودة الى التاريخ نستطلع في أرجائه وجه الجنوب اللبناني الذي كان يعرف بجبل عامل ونتعرف الى موقعه الحقيقي ونقف على دوره الذي أداه عبر القرون .

تلك مجرد محاولة يقوم بها المجلس الثقافي للبنان الجنوبي في سياق نشاطه الجديد وهو لا يدعي الكمال لها ، لهذه المحاولة ، ولا البراءة من الخطأ أو التقصير ، فهي خطوة لا أكثر على الطريق الطويل وكبير أملنا ان تتبعها خطوات أغنى بالفاعلية وأحفل بالفائدة.

وطموحنا هنا قد يشفع بنا اضافة الى ضالة الامكانات ومحدودية الموقع .

فلقد كان طموحنا ، وما زال ، الاسهام في عملية الكشف عن هوية الجنوب أي جبل عامل لتوكيد اصلته العربية وعن أهمية الدور الذي لعبه في السابق من أيامه والتضحيات التي قدمها ، عبر القرون ، دفاعاً عن اصلته تلك وصونا لكرامة أبنائه وتعزيزاً لحريتهم في العيش والمعتقد .

وفي يقيننا ان تمسك الجنوبي اليوم بأرضه ، على هذا النحو التعلق الصوفي وصموده البطولي على ترابها المشتعل ، أبداً ، يعود ، في المقام الاول ، الى هذا الحس التاريخي الراسخ في وجدانه والى ارادة المقاومة لديه المتوارثة عبر الاجيال .

وهنا يأتي دور المعرفة النقدية بالتراث والتاريخ فنتقير هذه الارادة ويتعمق ذلك الحس بتحول هذه المعرفة ، عند المواطن في

الجنوب ، الى سلاح عنيد ينتصب في وجه غزوات الاقتلاع والاعتصاب .

ذاك هو الهاجس الوحيد الذي كان وراء اختيارنا ، في هذا الوقت بالذات ، لهذه الصفحات من تاريخ جبل عامل ننشرها في الناس في محاولة متواضعة لتحرير تاريخنا من أيدي المفتصبين وكتاب السلاطين واعادة امتلاكه من قبل الجماهير الواسعة ولا سيما في الجنوب اللبناني . ذلك لان حملة التعدي هناك على تراثنا وقيمنا آخذة في التصعيد والعنف بالتزامن والترافق مع الحملات العسكرية الصهيونية البالغة الضراوة . ويأتي في طليعة أهداف تلك الحملة المعتدية محاولة اغتصاب تاريخ تلك البقعة الطيبة من أرضنا العربية وتشويه تراثها استكمالاً وتغطية لاغتصابها هي بالذات .

بيد أن قوى التغيير في مجتمعنا العربي ، هنا وهناك ، قادرة على لجم هذه الحملات جميعاً في يوم آت لا ريب فيه .

ونحن اليوم اذ ننشر هذه الصفحات من تاريخنا في كتاب مستقل ، هو الكتاب الثالث الذي تيسر للمجلس الثقافي للبنان الجنوبي اصداره عن الجنوب في بحر هذه السنة فقط ، فذلك من أجل أن نسهم ، بسلاح المعرفة ، في المعركة المصرية الكبرى التي تدور رحاها ، هذه الايام ، على أرض الجنوب ترجمة فعلية للفصل الثاني من كتاب « كمب ديفيد » الاسود .

ولا شك في أن هذه المعركة تختزل اليوم معادلة الصراع الضاري بين ثلاثي الـ « كمب » وأشباعهم من الاتباع العلنيين والسريين وبين قوى التحرر الوطني والتقدم ، ليس على الساحة اللبنانية وحسب بل على الساحة العربية الشاسعة .

من هنا مصدر اعتزاز المجلس الثقافي للبنان الجنوبي بهذا العمل المتواضع الذي نأمل أن يجد السبيل الى قلوب الاصدقاء داخل حدود الوطن وخارجها .



ولعلنا بهذا العمل ندفع الى المزيد من الكتابة حول المطوي من تاريخنا والمغفل أو المعتدى عليه ، وفقا للنهج الذي يتبعه السادة اصحاب هذه المحاضرات في شغلهم اليومي على مادة التاريخ .

لهؤلاء الاصدقاء بالغ شكرنا .

وتحية اكبار للصامدين من اهلنا في جنوب الوطن ، هذا الخط اليتيم للمواجهة على مساحة الارض العربية كلها .

بيروت في ١٠ - ١٠ - ١٩٧٩ حبيب صادق

## ثورة صور ظاهرة التمزق السياسي في العهد الفاطمي

بقلم الدكتور ابراهيم بيضون

ثمة أحداث في التاريخ العربي الاسلامي ، بعضها يؤدي الى محطات ومنعطفات ، تسهم في صنع هذا التاريخ فتعيش معه أمجاداً أو كوارث . . أو تغيب وراء الهامش فلا يبقى منها حتى اللمحات الباهتة . والتاريخ منذ نشأته كأحد العلوم الدينية ، ارتبط بمسألتين من الثوابت ، كان على المؤرخ أو كاتب التاريخ أن يتأثر بهما في الإطار الكمي وليس النوعي فقط . فهو أسير بيئته الاسلامية التي فطر عليها بشيء من التصوف من ناحية ، ومرآة السلطة كغيره من المثقفين في عصره من ناحية ثانية . وهذا ما حدا به الى التوجه نحو تدوين اخبار الطبقة الحاكمة ، وما يدور حولها من اهتمامات سياسية وعسكرية في المقام الاول .

وكان من البديهي جدا ، وفي ظل أنظمة الحكم المطلق التي زامنتها حقبات التدوين التاريخي ، أن تتمحور جهود المؤرخ التقليدي حول السلطة ، سواء كان الممثل لها الخليفة أم السلطان أم الوالي . حتى ان كثيرا من تواريخ الأزمنة الغابرة كانت ترفع الى أحد هؤلاء،



تلهمسا للرضى وابتغاء للفائدة (١) . ومعنى ذلك أن مراكز الحكم أو الأحداث ، جذبت إليها المؤرخين كما الشعراء وبقية مثقفي العصر ، على حساب المناطق الأخرى التي ظلت من مجاهل التاريخ أو من صفحاته المنسية .

وإذا كان جبل عامل أو « جنوب لبنان » — في الاسم الإداري والسياسي الغالب عليه — ينطبق عليه الوضع الآخر ، انطلاقاً من الاعتبارات الجغرافية التي نأت به عن محاور الحكم الرئيسية ، المتجاذبة ما بين ( المدينة ) والكوفة ودمشق وبغداد والقاهرة وغيرها من الحواضر الشهيرة ، فإن هذا الجبل لم يعدم دوراً في التأثير على الأحداث أو التأثير بها .. وبعضها كان له مفعول التغيير الجذري في مجرى التاريخ . فهي صفحة مطوية فقط تحتاج إلى استخلاص من برائث النسيان وفتك غابر القرون .. وهي على تعقيدها كمادة تاريخية وتشابك أخبارها حيناً وتناثرها أحياناً ، فإنها صفحة مثيرة في التاريخ الوسيط ، حيث تحولت المنطقة الشامية ، خاصة بعد سقوط خلافة الأمويين ، إلى معترك ساخن للقوى السياسية العالمية في ذلك الوقت . فقد ورثت الشام العباسية دور العراق الأموي ، متحولة إلى بؤرة ثورية ، تستقطب حركات المعارضة المتطرفة وتتجه إليها أنظار الدول الكبرى ، سواء في الإطار الإسلامي أم البيزنطي .. أم الصليبي . وكون جبل عامل أحد أطراف هذه المنطقة الأساسية ، وأحد المعابر المهمة لجيوش الدويلات الإسلامية — خاصة في مصر ، وذلك منذ قيام دولة ابن طولون في

(١) الكتاب الذي دونه المؤرخ أبي نصر العتبي في مطلع القرن الخامس الهجري عن حياة السلطان محمود الغزنوي وسماه « تاريخ اليميني » نسبة إلى لقب هذا الأخير « يمين الدولة » ، أو كتاب أبي الفضل محمد بن الحسين البيهقي في منتصف ذلك القرن والمعروف بتاريخ البيهقي وهو مهدى للسلطان نفسه .. فضلاً عن كتب أخرى مثل « الفخري في الآداب السلطانية » لابن طباطبا ، الذي أهداه إلى أمير الموصل في عهد المغول فخر الدين عيسى بن إبراهيم .. وكذلك كتاب المقرئ التلمساني « نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » .. الخ ...

أواخر القرن التاسع الميلادي حتى ظهور دولة محمد علي في النصف الأول من القرن التاسع عشر — فقد اكتسب هذا الإقليم شخصيته الجغرافية والسياسية .. وحتى الحضارية المتميزة والمتواصلة مع السنين .

والكتابة عن تاريخ جبل عامل الإسلامي في إطار الموضوعية العلمية ، ليست بمكان من السهولة ، وذلك — كما أثرت — بسبب ضآلة المادة أو ندرتها إلى درجة قد لا تفي بالحد الأدنى من مقومات البحث الأكاديمي ، مما أدى إلى بقاء هذا الإقليم على هامش صفحات التاريخ الإسلامي ، خاصة القديمة منها .

ولعلنا نستطيع تكوين صورة أكثر جلاء إذا ما توقفنا عند حاضرة هذا الجبل وبوابته الساحلية ( صور ) ، المدينة التي تفردت منذ العصور السحيقة بجاذبية خاصة ، اكتسبتها من موقعها الاستراتيجي الهام أولاً ، ومن دخولها دائرة الصراع الدولي على حوض البحر المتوسط ثانياً . وإذا كانت ( صور ) في تاريخها الفينيقي القديم ، كإحدى أشهر المدن الواقعة على الساحل السوري أو الشامي ، هي ما تعرفه عنها ذاكرة الطالب في مراحل الدراسة الأولى ، فإن تاريخها الإسلامي لم يكن مجرداً من الأهمية ، حيث ظل للمدينة الكثير من ملامحها التقليدية السابقة . ولعل الفارق بين هاتين الصورتين ، ربما كان خاضعاً لطبيعة الحكم في كليهما وانعكاس ذلك على شخصيتها الخاصة ، كواحدة من الثغور البحرية الرئيسية . ففي الأولى ساد نظام دولة المدينة ، على غرار دويلات البحر المتوسط حينذاك ، بينها فقدت هذا الدور في الثانية وذابت في أنظمة الحكم الإسلامية المتعاقبة ، باستثناء فترات قصيرة ، كانت معاصرة لبداية انحسار النفوذ الفاطمي في بلاد الشام .

وتتمتد الجذور العربية الإسلامية لمدينة صور إلى وقت مبكر من حركة الفتوح ، وما أسفر عنها من أجلاء تام للنفوذ البيزنطي في المنطقة الشامية . ومن المرجح أنها دخلت فلك السيادة الجديدة بعيد معركة اليرموك الشهيرة أو في أعقاب استسلام بيت المقدس ( ١٧ هـ / ٦٣٨ م ) . وهذا ما يدعمه البلاذري ، المؤرخ المتخصص



في اخبار الفتوح بقوله : ان فتحها قد جرى على يد شرحبيل بن حسنة ، أحد قادة حروب الشام ، اذ يبدو انها كانت واقعة ضمن مهامه كقائد لقطاع الاردن (١) . بيد ان اضطراب الروايات لدى المؤرخ نفسه المتراوحة ما بين شرحبيل ويزيد بن ابي سفيان (٢) واحيانا عمرو بن العاص (٣) ، يدفعنا الى التردد في اتخاذ موقف حاسم من هذه الرواية او تلك . ومن المرجح ان يكون أحد اثنين من قادة الشام قد أنجز عملية الفتح هذه ، اولهما شرحبيل بن حسنة ، المسؤول عسكريا عما عرف بـ « مدن الاردن » الساحلية ، وهو الاسم الذي أطلقه عليها جغرافيو العرب القدماء ، وثانيهما يزيد بن ابي سفيان ، الذي يورد اسمه ( الواقدي ) (٤) على رأس الحملة التي أعدها القائد العام لجيوش الشام ، ابي عبيده بن الجراح ، لفتح هذه المدينة . وما يهمننا من ذلك تبيان ثابتة غير قابلة للشك ، بأن صور دخلت دائرة الحكم العربي الاسلامي ابان خلافة عمر بن الخطاب ، وتحديدًا قبل سنة ١٨ للهجرة حيث توفي كل من القائدين ابي عبيده ويزيد في طاعون عمواس الشهير . ومن المؤكد انها كانت منذ ذلك التاريخ في صميم الاستراتيجية البحرية لولاية الشام ، خاصة بعد حملة عمرو بن العاص على مصر وضرورة تأمين الخطوط الخلفية ، بازالة قواعد البيزنطيين المعروفة ، وفي طليعتها صور وعكا .

وكان لصور الاسلامية دورها في سياسة معاوية بن ابي سفيان (٥) الدفاعية ، الهادفة الى تنشيط السلاح البحري العربي ، بما يتكافأ والبحرية البيزنطية المتفوقة . فنجح في سد هذه الثغرة او كاد ، بتقويم نسبي للاختلال القائم بين القوتين ، وذلك بانشاء « نظام الرباط » وهو بعد حاكم لولاية الشام . وهذه التسمية لها مدلولها الاسلامي الخاص ، وتعني الإقامة او الرابطة على ثغور

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٢٢ .

(٢) الواقدي : فتوح الشام ص ٣٢ - ٣٥ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٢٤ .

(٤) فتوح الشام ص ٣٢ - ٣٤ .

(٥) اول حاكم على ولاية الشام بعد وفاة اخيه يزيد .

العدو (١) . وكان هذا النظام الحربي معمما على مدن الساحل الشامي المعرضة للهجمات البيزنطية . وبرزت عكا حينذاك كقاعدة رئيسية ، ولكن دون أن تفقد صور أهميتها كمنفذ بحري ، تطور بصورة ملفتة في عهد الخلفاء مروانيين . فقد أمر عبد الملك في مطلع خلافته بتجديد مينائها وأبراجها ، حيث أشار ( البلاذري ) الى ذلك ووصف سكان المدينة بانهم « جند من العرب وخلق من الروم » (٢) . ومن المفترض - استنادا الى هذه الرواية - أن يكون فتحها قد تم بدون عناء ان لم نقل « صلحا » حسب التعبير العسكري الشائع في ذلك الوقت . كما ان تعريبها لم يأخذ سوى القليل من الجهد ، لما قام به سكانها غير العرب من دور كبير في انشاء البحرية العربية ، التي كان رائدها الاول معاوية بن ابي سفيان . ثم تعزز هذا الدور في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك ، بانتقال مركز صناعة السفن اليها من عكا (٣) ، لتصبح القاعدة الاولى على الساحل الشامي . وهذا ما أكدته روايات المؤرخين والجغرافيين والرحالة ، التي وصفتها بمحطة الشام البحرية . ومع انتقال الخلافة الى العباسيين احتفظت صور بمركز الصدارة حتى منتصف القرن الثالث الهجري ، عندما أمر الخليفة المتوكل بتوزيع القوة البحرية بشكل متوازن على امتداد الساحل .

وفي اعقاب الاختلال الذي أصاب مؤسسة الخلافة العباسية ، المرتنة حينذاك لطبقة الجند المحترفين من الاثراك ، نشطت القوى السياسية المعارضة في مختلف بقاع الدولة المضطربة . واذا كان العامل الجغرافي قد أسهم بدور كبير في توفير الاجواء المساعدة والمشجعة على قيام دويلات مستقلة او شبه مستقلة ، فان بلاد الشام استنادا للظروف نفسها ، خضعت لهذه المتغيرات السياسية وعاشت انماطا متنوعة من الحركات المعادية للنظام العباسي ، أو المتحالفة معه بصورة غير مباشرة . فمنذ قيام الدولة الطولونية ،

(١) دائرة المعارف الاسلامية ج ١٠ ص ١٩ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٢٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٢٥ .



كانت الشام محور التجاذب بين هذه القوى وبين قوات النظام المركزي ، الذي استعاد حيناً بعض عافيته أبان خلافة المعتمد ، حيث سيطر أخوه ولي العهد والرجل القوي أبي أحمد الموفق على السلطة الفعلية ، دون أن ننسى بقية الحركات الإقليمية التي تزعمها الحمدانيون والمرداسيون في شمالي الشام ، فضلاً عن القوى القبلية التي تطلعت أيضاً إلى دور لها في خضم تلك الأحداث ، كبنو عقيل وبنو الجراح . وفي غمار هذا التطاحن السياسي الضاري ، الذي كان في مضمونه صراع الأمراء وكبار القادة وشيوخ القبائل ، تظهر حركة ذات لون جديد وطرح مختلف ، وهي المعروفة بحركة القرامطة التي امتد نشاطها عبر محاور ثلاثة : الأول في العراق والثاني في البحرين والثالث في الشام . غير أن محورها الأخير ، كان الأكثر تعقيداً واثارة ، حيث تزامن مع أواخر النفوذ الطولوني حتى قيام الدولة الفاطمية . ولقد تركت هذه الحركة وراءها أسئلة غامضة ومحيرة ، لا سيما في علاقتها المتشنجة مع الفاطميين — رغم وحدة الانتهاء الإسماعيلي — والتحالف المشبوه مع الخلافة العباسية ، دون أي اعتبار لمنطلقاتها الأولى ، كحركة ثورية قامت أساساً ضد هذه الأخيرة وشهرت السلاح في وجهها .

وفي تلك الأثناء ، بينما كان الصراع شديداً على جبهة الشام المنهكة بحروبها الداخلية ، تسابقت اثنتان من أكبر القوى السياسية والعسكرية في حوض البحر المتوسط الشرقي ، تطمح كل منهما إلى احكام قبضتها على هذه المنطقة ، بما لذلك من تأثير جذري على استراتيجية التفوق العسكري البحري ، محور التنافس بين القوتين . الأولى : تمثلها الدولة البيزنطية ، الساعية إلى تحقيق حلم قديم ، وهو إعادة الشام إلى دائرة نفوذها والسيطرة على بيت المقدس ، التي كانت هاجس إباطرتها من البيت المقدوني ، المحكومين بنزعة صليبية متطرفة . أما الثانية ، فهي الدولة الفاطمية التي انطلقت من المغرب الأقصى ومعها خطة القضاء على خلافة العباسيين ، المترنحة تحت عبء مشاكلها الداخلية ووظاة الاخطار الخارجية المحدقة بها .

لقد كان الدور الفاطمي من هذا المنطلق يحمل معه هموم المشرق الإسلامي ، الذي عانى خاصة من الفراغ العسكري على شريط الثغور الشمالية . فسارع الفاطميون إلى اعلان الخلافة منذ ظهور دولتهم في المغرب ، كبادرة انقاذية للواقع المتدهور ، الذي اقترب بفشل الخلفاء العباسيين في التصدي لهذا الدور الخطير . وهذا ما نجد صداه في النزعة الجهادية المجذرة لدى الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله ، التي جارى بها صليبية الاسرة المقدونية . فكان ما اعترف به عشية السيطرة على مصر ، بأنه « لم يأت إلى الشرق طمعاً في ملك أو جاه ، وإنما للجهاد ووقف خطر البيزنطيين » (١) . وما لبث هذا الاتجاه أن تحول إلى استراتيجية خاصة بالفاطميين ، يستمد الجانب النظري أهميته فيها من الجهاد ، أحد الأركان الرئيسية في عقيدتهم ، بينما أداتها العملية تجسدت في احراز التفوق العسكري البحري ، الذي كان معقوداً حتى ذلك الوقت للبيزنطيين .

وهكذا كانت السيطرة على الشام ، امتداداً طبيعياً لقوة الفاطميين النامية في مصر واستجابة لاهداف سياسية وعقائدية التزموا بها ، فجعلت منهم الطرف البديل والمؤهل لحكم المنطقة وصد الاخطار الخارجية عنها . وما لبثت دمشق أن استسلمت للقائد الفاطمي جعفر بن فلاح ( ٣٥٩ هـ / ٩٦٩ م ) ، في أعقاب مجابهة عصية أسهمت فيها التحالفات القبلية والقرمطية ، إلى جانب الحكم الأخشيدي المتهاوي في ذلك الحين . وفي العام نفسه ، كان الامبراطور البيزنطي نقفوروس فوكاس Nicephoros Phocas ، يحقق أولى انتصاراته الجدية في انطاكية (٢) ، وذلك بعد سلسلة من الهجمات الجريئة التي استهدفت شمالي الشام والجزيرة (٣) .

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٢ .

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٧ ص ٣٦ - ٣٧ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٥٥ .

اسد رستم : الروم ج ٢ ص ٤٢ .



فتحولت هذه المدينة الى مركز للعمليات العسكرية البيزنطية ضد  
أمرأ المنطقة ، وكانت أخطرها عملية الإمبراطور يوحنا زمسكيس  
Jean Tzimisce ( ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م ) ، التي انطلقت من هذه  
القاعدة مستهدفة بيت المقدس .

غير أن دخول الفاطميين طرفا جديدا وقويا في الصراع على  
المنطقة ، قلب حسابات الدولة البيزنطية التي عاشت أحلام العودة  
إليها بعد ثلاثة قرون ونيف . فكانت انتصارات زمسكيس سياسية  
أكثر منها عسكرية ، وانتهت حملته الى سلسلة من المعاهدات  
السلمية مع أمراء دمشق وعكا والرملة وبيت المقدس . ولعل  
انتصاراته الحقيقية كانت على الساحل الشامي ، حيث استولى  
على صيدا وبيروت وجبيل ، وذلك لتطويق خطر القواعد الفاطمية  
والحد من عملياتها المضادة . بيد أنه أخفق في احتلال صور — قاعدة  
الفاطميين في الشام — التي كان لها الدور الرئيسي في إحباط الحملة  
البيزنطية وانسحاب الإمبراطور الى أنطاكية .

وكان هذا الدور الانقاذي ، قد أعطى الفاطميين فرصة التقدم على  
الأطراف الإسلامية المتشرذمة والعاجزة عن حماية المنطقة المهددة .  
إلا أن تثبيت أقدامهم فيها ، كان بحاجة الى جهود مكثفة ، لم تقل  
منها الهالة العظيمة التي أحيطت بهم أو الحملة الدعائية الواسعة ،  
التي سبقت تحركهم إليها . فعلى الرغم من التعاطف النسبي الذي  
ساده موقف القبائل العربية أو معظمها ، لا سيما القاطنة في الأجزاء  
الجنوبية من الشام ، إلا أن المدن الكبيرة لم تتحمس كثيرا للدولة  
الجديدة . وكان في طليعتها دمشق ، التي ظلت حريصة على موقفها  
المتصلب والمناهض للاتجاه العقائدي الذي يمثلته الفاطميون ، بينما  
خضعت حلب ، القرية نسبيا من هذا الاتجاه ، لتأثير التيار  
الاستقلالي الذي تبلور مع ظهور دولة الحمدانيين ، والمتعارض حكما  
مع النظام الخلافي المركزي الذي حمله الفاطميون الى الشام . وكان  
يبدو واضحا أن اعتماد هؤلاء على قواهم الذاتية ، وهي مكونة أصلا

من جنود « المغاربة » كان وراء ذلك الفتور الذي سيطر على الموقف  
الشامي ، مما أدى الى ارتباك الحكم الفاطمي وانجراره في خضم  
الصراعات المحلية ، وبالتالي الى اعاقه مشاريعه الجهادية ، بعد  
تشبيت الجهود على عدة جبهات في وقت واحد .

وقضت التطورات السياسية حينذاك ، أن تصبح طرابلس مركز  
البحرية الفاطمية ، وذلك بعد تعزيز قاعدة البيزنطيين في أنطاكية .  
نبدا وكأن الصراع التقليدي بين العرب والبيزنطيين ، قد استعاد  
بريقه أو كاد ، وأن الجهاد كتعبير له مدلوله الخاص في العقيدة  
الإسلامية ، قد استرد الكثير من مضمونه الإلزامي الذي اكتسبه في  
العهود الأولى السابقة . وكان تحول القاعدة الرئيسية الى طرابلس ،  
أحدى ملامح الاستراتيجية الفاطمية ، التي كان محورها التصدي  
للبيزنطيين ، كمدخل للسيادة المطلقة على العالم الإسلامي في ذلك  
الحين . ولقد حافظت صور وسط هذه المتغيرات على دورها المميز ،  
كقاعدة جنوبية ، كان من أبرز مهامها ، عدا حماية هذا الجزء من  
الساحل الشامي ، مراقبة تحركات القوى السياسية المناهضة  
للفاطميين في الداخل .

وكانت صور قد خرجت من دائرة النفوذ العباسي مع ظهور الدولة  
الطولونية ، حيث ارتبطت منذ ذلك الوقت بالقوى الحاكمة في مصر .  
وهناك بضعة مؤشرات تؤكد هذا الخروج المبكر من فلك النظام  
المركزي واتخاذها ، كمناطقة وليس كمدينة فقط ، شخصية خاصة ،  
تبلورت عمليا في إطار الخلافة العباسية . فإذا صحت الرواية  
التاريخية بتفاصيلها المعروفة ، عن إبعاد أبي ذر الغفاري الى جبل  
عامل ، وهو أحد رواد التيار الإصلاحية في العهد الراشدي ، فإن  
التأثير الكبير قد زرع في هذه الأرض بذور صرخته الجريئة التي أرجفت  
شلال الاستقرائية المتزمتة ، القابضة بكلتا يديها على السلطة  
وعلى الأموال (١) . وقد نستطيع من خلال ذلك تفسير تعاطف هذه

(١) محمد عماره : مسلمون ثوار ص ٤٥ .



المنطقة مع الحكم الفاطمي ، الذي جاء بطرح اصلاحي جديد ، فوجد حماسة في الجزء الجنوبي من الشام ، خلافا للجزاء الاخرى في الوسط والشمال ، التي احتفظت بميولها العباسية او الاستقلالية .

والبصمات القديمة ، المطبوعة على تاريخ صور الاسلامي ، قد لا نجد لها أثرا واضحا قبل الثورة على الحكم الفاطمي في اواخر القرن الرابع الهجري . وكانت تلك أحد مظاهر العلاقة العدائية مع البيزنطيين التي تمحورت حول الشام ، ومن أخطر الحركات الثورية التي عمت المنطقة في ذلك الحين .

ولقد حدثت هذه الثورة في أعقاب انتصارات باهرة (١) ، حققها السلاح البحري الفاطمي ، فارضا على نده البيزنطي التراجع والانكفاء وراء أسوار انطاكية . ولم تجد القسطنطينية حينذاك — وقد أرهقتها متاعب حدودها الغربية ، فضلا عن استنزاف جبهتها التقليدية في الشرق — بدا من الرضوخ للأمر الواقع ، والسعي الى صلح متخاذل مع الخليفة ( العزيز ) ( ٢٧٧ هـ / ٩٨٧ م ) ، حيث ارتفع الدعاء له في مسجدها اثناء خطبة الجمعة (٢) . وبعد وفاة هذا الاخير ومجيء ( الحاكم ) — ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م — ، وهو أكثر الخلفاء الفاطميين غموضا وتطرفا في علاقاته مع البيزنطيين وحلفائهم في الشام ، حققت جيوشه أعظم انتصاراتها ضد حاكم انطاكية ، وذلك ابان محاولتها تحرير هذه المدينة المهمة . فكان أن دفعت هذه المعركة المنطقة الشامية مرة أخرى الى اتون الحرب ، حين قام الامبراطور باسيليوس الثاني Basilos 2 بحملة مضادة بلغت مشارف طرابلس ، ثم تراجع عنها الى طرطوس بعد المقاومة العنيفة التي أظهرتها هذه المدينة المحصنة .

واذا كانت هذه الحملة — التي قادها أحد المنع أباطرة الاسرة المقدونية في الحرب — لم تحقق الهدف الذي توخته بعد أن حالت

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٥٨ .

(٢) كان المسجد قد أنشيء في القرن الثامن الميلادي . اسد رستم : الروم

ج ٢ ص ٥٥ .

دونه القاعدة الفاطمية ، فانها نجحت في اقامة نوع من التوازن العسكري في المنطقة ، أسفر عن هدنة جديدة بين الخليفة والامبراطور مدتها عشرة اعوام (١) . غير ان المهادنة التي تفرضها عادة مواقف طارئة ومصالح غير متكافئة ، لا تؤدي بالضرورة الى تثبيت السلام بقدر ما تكون ستارا لحرب استنزافية مقنعة ، يستغلها طرف على حساب آخر . فلم يكن صدفة أن تنفجر المنطقة بالحركات المناوئة للفاطميين (٢) ، بعيد قليل من اتفاق الهدنة السالف الذكر ، دون أن تكون الدولة البيزنطية وراء توجيه هذه الحركات أو تحريضها . ففي دمشق حدث تمرد ضد الحامية الفاطمية ، قضى على عدد كبير من جندها « المقاربة » . وفي الرملة ثار بنو الجراح ، في الوقت نفسه الذي حاصرت فيه القوات البيزنطية حصن أفامية في الشمال (٣) .

وكانت ثورة صور أكثر هذه الحركات خطورة على المنطقة الشامية في ذلك الوقت . وقد وصف قائدها بانه ملاح مغامر كان يعرف باسم (علاقة) أو (العلاقة) (٤) . وجاءت توقيت هذه الحركة يكشف الصلة والتنسيق مع دوكاس ( الدوقس ) ، قائد عملية أفامية (٥) . ناقنح قائد الثورة (علاقه) معقل الحاكم الفاطمي واستولى على المدينة ، بينما كانت السفن البيزنطية منتشرة على مقربة من الشاطئ (٦) ، لحماية الثورة واعاقة البحرية الفاطمية والحد من تأثيرها على تطورات المدينة .

وجاءت ردة الفعل في مستوى الحدث الخطير ، وما تمثله صور من أهمية في الاستراتيجية الفاطمية . ذلك ان سيطرة البيزنطيين

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٩٢ .

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٧ ص ١٧٨ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) دائرة المعارف الاسلامية ج ١٤ ص ٣٦٦ .

(٦) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٧ ص ١٧٨ .



عليها عبر أحد صنائعهم المخلصين ، ستؤدي الي خرق التوازن القائم في الصراع على النفوذ بين الدولتين ، وسيجعل منها مفتاح الدخول مجددا الى المنطقة ، حيث موقعها الوسطي والمطل على حركات التمرد الاخرى في دمشق والرملة وبقية المواقع المتفجرة . وكانت هذه الاخيرة تلقتي مع حركة علاقه في الاتجاه الاستقلالي المشترك ، ولكنها تختلف عنها في الظروف المحلية والخضوع لمؤثرات قبلية واجتماعية ، كانت السلاح البيزنطي غير المباشر لتحقيق الهيمنة السياسية على بلاد الشام . وسرعان ما تحركت الجيوش الفاطمية نحو صور للقضاء على حركة علاقه . وكان والي الشام (١) قد عهد الى أحد قواده الحسين بن ناصر الدولة بهذه المهمة . فأحكم الحصار بقواته البرية على المدينة (٢) ، في الوقت نفسه الذي أرسل فيه الخليفة ( الحاكم ) حملة بحرية من عشرين سفينة ، لتضاف اليها التعزيزات البحرية من صيدا وطرابلس (٣) .

وعلى جبهة الثورة ، قطعت صور شوطا في الحكم الذاتي ، بعد القضاء على الحامية الفاطمية وقتل عناصرها « المغاربة » ، وسط صمت شعبي لا نستطيع كشف أبعاده بصورة قاطعة ، اذا كان في موقع الاعتراض أم التأييد . غير أن الاحتمال الاول قد يكون له نصيبه من الموضوعية ، حيث تحكم على الأرجح شعور اللامبالاة في الموقف الشعبي العام ، فضلا عن السرعة المدهشة التي تم فيها للقوات الفاطمية اخماد هذه الثورة . فكانت من هذا المنطلق أقرب الى الانقلاب أو المفامرة ، خاصة وان المصادر التاريخية لم تشر الى ما يتعدى هذا الطرح أو يوحي بنقيضه . وكان يبدو أن زعيم الحركة قد راهن في هذا الاطار على العلاقة غير الودية بين « الصوريين » وبين ممثلي الحكم الفاطمي ، وهم في الغالب أداة قمعية حيث حلوا

(١) جيش بن الصمصامة .

(٤) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٧ ص ١٧٨ .

(٣) تاريخ البحرية المصرية « بحث للدكتور السيد عبد العزيز سالم » ص ٤٧٩ .

في المنطقة . ولا ريب أن ترديد « الجند المغاربة » عند مؤرخي ذلك العصر ، هو من دلالات هذا النفور الشعبي من الفاطميين ، رغم الحاجة الماسة الى دورهم الوطني والجهادي ، ورغم التقدير الذي انتزعوه من الراي العام العربي الاسلامي في اعقاب انتصاراتهم البحرية الساطعة .

غير ان الحسابات البيزنطية لاتخاذ صور أرض الصراع الحاسم على النفوذ في بلاد الشام ، اثبتت انها خاطئة وغير واقعية . فقد جر ذلك الى مجابهة عنيفة بين الطرفين ، توجتها المعركة البحرية الضارية التي وقعت بجوار المدينة ( ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م ) ، وأسفرت عن انتصار باهر للاسطول الفاطمي ، الذي أثبت مرة أخرى كفاءته التقنية والقتالية المتطورة ، بينما أضاف الاسطول البيزنطي الى سجله نقطة تراجعية جديدة ، بعد استنفاد طاقاته أو معظمها في حروب متواصلة . وفي صور ، انهارت مقاومة (علاقة) وأصحابه، بعد الضربة الموجعة التي تلقتها الحليفة الكبرى المغزية لحركته . وما لبثت القوات الفاطمية أن استعادت السيطرة على المدينة ، وقضت على آخر جيوب المقاومة في أحد أبراجها ، التي التجأ اليها (علاقة) مع المتبقين من أنصاره .

بعد اخماد الثورة والتمثيل بقائدها وجماعته (١) ، تسلم القائد الفاطمي ادارة المدينة دون أن يطرأ تعديل ما على واقع السيادة الفاطمية في القسم الجنوبي من الشام . بيد أن صور ، ظلت تشكل وعلى المدى البعيد ، أحد أبرز الهموم الفاطمية . فقد تنازعا غالبا الطموح الى الاستقلال ، خاصة مع بداية التقلص للاطار الامبراطوري الفاطمي ، وذلك بعد تظافر القوى السياسية ضد هذه الدولة في الداخل والخارج . واذا كنا لا نمتلك المادة التاريخية لتتبع أحداث تلك الفترة بشيء من التفصيل ، فان بدايات القرن الخامس الهجري حفلت بتطورات مثيرة ، رافقها غياب النفوذ الفاطمي مرة أخرى عن مدينة

(١) ابن القلانسي : تاريخ ذيل دمشق ص ٥٠ - ٥١ .

ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٧ ص ١٧٨ .



صور ، التي حققت الحكم الذاتي مع القاضي ابن أبي عقيل المعروف بعين الدولة . وكان هذا الأخير قد استهل عهدا من تاريخها ، يمكن تسميته بعهد القضاة ، حيث تناقل إبنائه السلطة حتى الربع الأخير من القرن الخامس الهجري ( ٤٨٢ هـ ) (١) ، عندما استرجعها الفاطميون في عهد الخليفة المستنصر (٢) ، أبان المحاولة لتدعيم مواقعهم على الثغور الساحلية .

وفي خلال السنوات الأربع التالية ( ٤٨٢ — ٤٨٦ هـ ) ، تقلد إدارة صور القائد الفاطمي منير الدولة الجيوشي ، الذي طمح بدوره الى الاستقلال ، فقام بانقلاب عسكري لم يكتب له النجاح . ولعل ما يستلفت الاهتمام هنا ، والذي يؤكد وجهة نظرنا السابقة ، هو الموقف العام في المدينة ، الذي لم يكن رافضا لهذه المحاولة فقط ، بل متعاطفا مع الخليفة المستنصر وتمسكا بالحكم المركزي . على ان هذا الموقف الإيجابي لم ينقذها من تغطية نفقات الحملة العسكرية ، حيث فرضت عليها ضريبة مالية باهظة ، بينما لقي ( منير الدولة ) عقابا لا يختلف كثيرا عما حل لسلفه ( علاقة ) (٣) .

★

كانت ثورة صور وما جرت اليه من تطورات سياسية ، بداية مرحلة جديدة في تاريخ الشام ، تراوحت ما بين تذبذب السيادة الفاطمية وبين الغزو الصليبي للشرق ، الذي نجح في تحقيق ما أخفق فيه البيزنطيون وهو السيطرة على هذه المنطقة . وما لبثت صور ان خضعت كغيرها ، ولكن بصعوبة للامر الواقع . فاستسلمت للصليبيين في سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م (٤) ، بينما تراجع الفاطميون

(١) ابن القلانسي : تاريخ ذيل دمشق ص ١٢٠ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٣١ .

(٣) ابن القلانسي : تاريخ ذيل دمشق ص ١٢٤ — ١٢٥ .

(٤) أرنست باركر : الحروب الصليبية ص ٤٤ .

عبد المنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى

الى خط دفاعي متأخر ، حاصرين جل اهتمامهم في استعادة القدس التي لقيت المصير نفسه قبل ربع قرن .

وفي اطار التقويم الموضوعي لحركة (علاقة) ، لا بد أن نصطدم حيننا بذلك الموقع الخجول الذي احتلته في مصادر المؤرخين التقليديين ، وحيننا آخر بوصفها حركة تحريرية لدى بعض الآراء المعاصرة . وهذا يعني أن أية دراسة تحليلية لم تبحث في خلفية هذه الثورة أو تعمل على تبديد التناقض المحيط بها ، وهو أمر لا يتحقق قبل التوصل الى معرفة جيدة لطبيعة المنطقة ، عبر محاورها المتعددة وتحالفاتها المشبوهة وصراعاتها الطاحنة . فابن القلانسي ، وهو من مؤرخي القرن الخامس الهجري ، يكتفي بالقول بأن « أهل صور قد عصوا في هذه السنة » (١) — أي سنة ٣٨٧ هـ — ثم يضيف بعد هزيمة البيزنطيين بجوار المدينة « فضعفت نفوس أهل صور ولم يكن لهم طاقة بمن اجتمع عليهم من العساكر المغاربة برا وبحرا » (٢) . وهو يريد كما يتضح لنا تقويم هذه الحركة على انها ثورة المدينة بكل من فيها ضد الفاطميين ، دون اشارة ما الى موقفه من اتصالها أو تحالفها مع الإعداء التقليديين للقوى الإسلامية في الشام . وكذلك فعل ابن الأثير (٣) ، الذي اقتبس أخبارها عن سلفه ولم يصف اليها أي تفصيل خارج المكان الذي وضعها فيه ابن القلانسي . ولعل هذا الموقف لم يكن مجردا من التحامل أو الحكم المسبق . فكلها كانت له ميوله المحافظة ونزعته غير الودية من الخلافة الفاطمية ، المرفوضة حيث عاش كل من المؤرخين .

وهكذا نصل الى تحديد لثورة صور في كتابات التقليديين بأنها ثورة على الحكم الفاطمي الذي اصطدم بمعارضة واسعة في الشام ، دفعته غالبا الى استخدام العنف ، لغة التخاطب الوحيد لحمايه

(١) ابن القلانسي : تاريخ ذيل دمشق ص ٥٠ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الكامل في التاريخ ج ٧ ص ١٧٨ .



نفوذه . واذا كان هذا الاعتقاد لا يخلو من تحامل مقصود كما رأينا، فانه يطرح في المقابل دور الفاطميين في بلاد الشام ، كما حدد مضمونه الخليفة المعز قبيل السيطرة عليها . فقد فشلوا في اقامة مجتمع غير عسكري في هذه المنطقة خلافا لما حدث في مصر ، وانصب اهتمامهم على احراز الموقع المتفوق بين الاطراف المتصارعة ، خاصة الدولة البيزنطية التي اقلقها كثيرا قيام دولة بحرية على تخومها ، متمسكة بمبدأ الجهاد وساعية الى توحيد العالم الاسلامي المتفكك .

لقد تصدت هذه القوى جميعها للفاطميين في الشام ، بحيث لم يكن الصراع سياسيا فقط ، ولكنه اتخذ اتجاها عقائديا في مضمونه وجمل الاطراف المتناقضة على توحيد مواقفها وتكتيل طاقاتها ضد العدو المشترك . وهنا تكمن احدى خلفيات الثورة التي قامت في (صور) ، في وقت بدأ فيه اهتزاز الشخصية المركزية للحكم الفاطمي ، بعد وفاة الخليفة العزيز وانتقال السلطة الفعلية الى الوزراء . ومن ناحية أخرى فان النظام الحربي الذي اعتمدته الفاطميون ، لم يكن افضل بكثير من النظام العباسي ، حيث تولت هذا القطاع عناصر محترفة أو مرتزقة ، لم يكن ما يربطها بهوم المنطقة سوى الالتزام بالحرب الجهادية التي يأمر بها الخليفة . وعدا ذلك فان التنافر كان على أشده ، بين السكان وبين طبقة الجند المستوردة التي جنحت كثيرا في استخدامها للسلطة وعلاقاتها المحلية .

ولم يكن غريبا حينذاك اتساع دائرة التهميل الشعبي من الحكم العسكري الفاطمي ، وانتشار موجة استقلالية عريضة ، اتخذت لها عدة محاور في وقت واحد وظروف متشابهة . واذا كنا لا نملك المعطيات التفصيلية عن ثورات الداخل ، وهي على الأرجح ذات بعد قبلي أو عقائدي ، فان ثورة ( صور ) لم تكن بعيدة عن هذا التيار الاستقلالي الذي كان متوازيا مع تراجع المركزية السياسية للخلافة، عباسية كانت أم فاطمية . الا أن ( صور ) كمدينة بحرية ، كانت مرهونة لموقعها الجغرافي عبر عصور التاريخ المختلفة . وهي من

هذا الموقع ، حيث الصراع البحري على أشده بين قوتين متكافئتين، افتقدت كثرة قرارها المستقل دون الارتواء في الفلك البيزنطي . ولما كان الاختيار الصعب مرفوضا كل الرفض ، ليس في هذا الزمن فقط ، بل أكثر تحديدا في الزمن الغابر ، حيث العلاقة مع البيزنطيين خضعت في ابعادها لقضية جذرية ، وذلك منذ انتصار العرب الكبير في اليرموك ، فان ثورة (علاقة) وضعت نفسها في المكان الاخر ومعها حكم التاريخ الفاصل ، بالخروج من اطار القضية المصرية التي استعادت بعض حجمها القديم على يد الفاطميين .

وقبل أن نطوي هذه الصفحة المثيرة من تاريخ (صور) السياسي، وهي تكاد تشرف على نهاية القرن العاشر الميلادي ، تبقى ثمرة ملاحظات لا بد من التنويه بها . . بعضها يشكل ثابتة والاخر لا يتعدى التساؤل . فهذه الحركة التي كان ما يماثلها حينذاك ربما في وجه أو أكثر ، انما انطلقت من مبدأ الرفض لنظام الحكم الفاطمي في الشام الذي استعان بعناصر غير محلية لحماية نفسه من الحركات الداخلية من جهة ، والتصدي للخطر البيزنطي من جهة ثانية . ولعل ذلك كان أحد أبرز أسباب الفشل الذي أحاق بالحكم الفاطمي في هذه المنطقة وأدى الى تأليب القوى المختلفة ضده بما فيها حركة القرامطة . وثورة ( صور ) من هذا الموقع الرفضي يمكن تصنيفها كوحدة من الحركات الاستقلالية العديدة التي شهدتها المنطقة بين حين وآخر .

ولكن ثورة ( صور ) من ناحية ثانية ، مثلت ظاهرة جديدة على المسرح السياسي في ذلك الوقت ، من خلال خرقها للمرة الاولى المعادلة القائمة بين طرفي الصراع التقليدي في المنطقة ، خاصة وانها حدثت في مرحلة نهوض ملحوظ للشخصية العربية الاسلامية ، جسد معها الفاطميون الاطار الوطني لدورهم الكبير . ولم تعد هذه الظاهرة غير مألوفة في الحقبات الزمنية التالية ، وما رافقها من تفكك وانحيار للجهة الداخلية في الشام ، خاصة في اعقاب الفزو الصليبي



الشهير . فغالبا ما تشيع هذه الظواهر في ظل انعدام التوازن السياسي والنفسي وفي زمن الانحدار المريع للقضية المصرية .. ومع كل صليبية جديدة يقودها مرتد اسمه ( علاقة ) ، مقتولة فيه كرامة الوطن .

**الدكتور ابراهيم بيضون**

**استاذ التاريخ الاسلامي في الجامعة اللبنانية**

## **اهم مصادر ومراجع البحث**

**البلاذري :** فتوح البلدان . المكتبة التجارية الكبرى القاهرة ١٩٥٩

**دائرة المعارف الاسلامية :** طبعة القاهرة ١٩٣٣

**ابن تغري بردي :** النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة . وزارة الثقافة والارشاد القومي — القاهرة ١٩٦٣

**د . أسد رستم :** الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب . دار المكشوف — بيروت ١٩٥٦

**محمد عمارة :** مسلمون ثوار . المؤسسة العربية للدراسات والنشر — بيروت .

**د . حسن ابراهيم حسن :** تاريخ الدولة الفاطمية ، مكتبة النهضة المصرية — القاهرة ١٩٥٨

**ابن الاثير :** الكامل في التاريخ . دار الكتاب العربي — بيروت ١٩٦٧

**د . السيد عبد العزيز سالم :** تاريخ البحرية الاسلامية . بالاشتراك مع د . أحمد مختار العبادي . منشورات جامعة بيروت العربية .

**ابن القلانسي :** تاريخ ذيل دمشق . مطبعة الآباء اليسوعيين — بيروت ١٩٠٨

**ارنست باركر :** الحروب الصليبية . ترجمة د . السيد الباز العريني الطبعة الثانية — دار النهضة العربية — بيروت .

**د . عبد المنعم ماجد :** تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى — مكتبة الجامعة العربية بيروت ١٩٦٦



## جبل عامل في العهدين الصليبي والمملوكي

بقلم الدكتور محمد مخزوم

يعتبر تاريخ منطقة جبل عامل منذ القرن العاشر الى عهدنا الحاضر فترة عنيدة في النضال ضد كل حركات الاستيطان التي باشرها الاوروبيون تارة في الحركة الصليبية المسلحة وتارة أخرى في حركة التبشير المسالة في ظاهرها ، بعد أن تحطمت قوتهم العسكرية . كما برزت حركة النضال هذه أشد فعالية في مقاومة حركة التتريك التي لبست ثوب الدين واتخذت شعار « اخوة العقيدة الدينية » سلاحا لها في كبت الشعور القومي . ثم ضد الاستعمار بجميع أشكاله سواء المباشر أو غير المباشر طيلة العصور الحديثة . وان ما نشهده اليوم في منطقة جبل عامل لهو أعظم شاهد على تراث هذه المنطقة النضالي .

وعلى الرغم من كثرة الدراسات التي ظهرت عن منطقة جبل عامل حتى الان بين ثنايا مصادر التاريخ المختلفة في العهدين الصليبي والمملوكي ، الا انه من الضروري جدا ، اسوة ببقية المناطق اللبنانية ، أخصها جبل لبنان ، أن يكتب تاريخ هذه المنطقة بالشروط الموضوعية التي تنطبق على ركائز البحث التاريخي الحديث .

ولما كنا كثيرا ما نطالع في كتب التاريخ — التي سجلت أحداث هذه المنطقة بالذات — تعبيرات مثل : ليس من المؤكد ، وعلى الأرجح ، ومن المحتمل ، والله أعلم ... فائننا سنحاول وبقدر ما تسمح لنا المراجع المتوفرة أن نتحاشى — بقدر الامكان في صناعة



تاريخ هذه المنطقة — الروايات والاخبار التي لا تتفق ومنهج البحث التاريخي .

ان عملية التطور التاريخي التي شهدتها هذه المنطقة بالانتقال من الحكم الصليبي الى الحكم المالكي تمثل مرحلتين متميزتين تمام التمايز : من حضارة اقطاعية خالصة ذات اقتصاد عيني الى حضارة اقطاعية ( الترابية ) يخضع حق استغلال الارض فيها للاقطاعي ، مع بعض الاستثناءات ، لتأدية الخدمة العسكرية .

### ١ — الاطار التاريخي

دخلت الجيوش الصليبية لبنان من شماله ، اواخر القرن الحادي عشر للميلاد ، وسارت على طول الساحل اللبناني حتى مدينة صيدا ، ( بوابة جبل عامل ) التي امتنع أهلها عن التفاوض معهم على الرغم من تهديد الصليبيين باتلاف الزرع وتخريب البساتين . ولما سقطت القدس أصبح لا بد امام الصليبيين من السيطرة على الساحل اللبناني ، لضمان وصول النجيدات من أوروبا . فهاجموا مدنه وقراه حيث سقطت بأيديهم على التوالي كل من جبيل ، طرابلس ثم بيروت .

اما منطقة جبل عامل فقد امتنعت على الصليبيين وذلك لوصول النجيدات اليها من البر بواسطة السلاجقة ، ومن البحر بواسطة الفاطميين . لذا صمم الصليبيون على فتحها للضرورات التالية :

اولا : انها تشكل الظهير العسكري لمدينة صور التي تصلها الامدادات من دمشق .

ثانيا : انها غنية بالموارد الزراعية التي تفتقر اليها مملكة بيت المقدس .

ثالثا : انها معبر للقوافل التجارية حيث تربط منطقة دمشق بميناء صور .

رابعا : انها تتحكم عسكريا في الممرات الشمالية لامارة الجليل التي تعتبر من الامارات الصليبية المهمة .

وهكذا بدأ التطفل العسكري الصليبي ينتشر في منطقة جبل عامل تدريجيا على اثر استقرار الصليبيين في بيت المقدس ووصول النجيدات المتتالية اليهم عن طريق البحر . فأقاموا القلاع والحصون الكثيرة التي كان من اشهرها قلعة تبين ( Tyron ) وقلعة الشقيف أرنون ، وقلعة الاسكندرونة ، وحصن تل المعشوق لتثديد الحصار على مدينة صور اخر ما ملكه الصليبيون على الساحل اللبناني .

هذه الاحداث تضعنا امام الحقيقة التالية وهي : ان تمسك الصليبيين بفكرة التوسع باتجاه منطقة جبل عامل ، جعل حكام دمشق والقاهرة من السلاجقة والفاطميين والمالكي فيما بعد بحكم ما بين هذه المنطقة وغيرها من الروابط القومية والعقدية ، يحاولون على مدى قرنين من الزمن استعادتها بقدر ما كانوا يجاهدون في الوقت نفسه لاستعادة بقية الاراضي العربية التي اقام عليها الصليبيون مملكتهم واماراتهم .

استمر الصليبيون يسيطرون على منطقة جبل عامل بواسطة جاليات عسكرية اقاموها في المدن والقلاع والحصون المنتشرة في جميع انحاء المنطقة . ولم تكن مناوشات السلاجقة للصليبيين لتعيق هذا الاحتلال حتى عهد نور الدين — الذي رفع من دمشق شعار المقاومة — الذي كان يعتبر من اهم المرتكزات الاساسية لاضفاء الشرعية على اية سلطة تستولي على الحكم في المناطق الاسلامية .

وادت حروب نور الدين للصليبيين ، بالاضافة الى ما كانت تحمله اماراتهم بين طياتها من عوامل التفسخ والانهار ، الى انهك قواهم العسكرية ، واعاقة توغلهم التجاري في المناطق الاسلامية ، الامر الذي جعل المدن التجارية — صاحبة الفضل الاول في السيطرة — نحجم عن تقديم المساعدات لهم .

وامام التكتل الاسلامي العربي الذي فرضه صلاح الدين ، بدأ



التراجع العسكري الصليبي في المنطقة يأخذ الطابع الجدي . فكانت « معركة حطين » أهم فاصل في تاريخ المنطقة ، إذ سيطر صلاح الدين على أثرها على قلعة « تبين » وصيدا والمناطق المحيطة بصور . كما هزم الصليبيين في معركة « تل القاضي » في مرجعيون . وبينما تذكر بعض المصادر المعاصرة ومنها « ابن القلانسي » أن نور الدين هزم الصليبيين ومعهم بعض المسلمين من جبل عامل قرب بانياس نرى العاملين يساندون صلاح الدين في حروبه . وتفسير ذلك أنه ليس من المستغرب أن يضم جيش الصليبيين بعض المسلمين ، لأن النظام الإقطاعي الذي كان سائدا كان يعتمد على تأدية خدمة عسكرية سنوية يؤديها التابع للمتبوع بحسب التشريعات والأعراف الإقطاعية .

ومع أن القوة الصليبية استرجعت بعض ما فقدته من مناطق في عهد خلفاء صلاح الدين ، فإن بروز القوة العسكرية المملوكية منذ بداية النصف الثاني للقرن الثالث عشر ، كانت عاملا حاسما في إجلاء الصليبيين عن المنطقة برمتها . إذ لم تكد سنة ١٢٩١ تنتهي حتى أصبح لبنان — بما فيه منطقة جبل عامل — تحت الحكم المملوكي الذي استمر حتى سنة ١٥١٦ عندما حل العثمانيون محل المماليك .

والعاملون خضعوا خلال الفترة — بين القرن العاشر والسادس عشر للميلاد — لعدة نظم مختلفة ، نحدد هويتها العامة على الشكل التالي :

## ٢ — النظم الاجتماعية والسياسية

### ١ — في المهدين السلجوقي والايوبي

امتدت دولة السلاجقة بشكل باتمعه من المستحيل السيطرة على أطرافها . فوزعت الأراضي بين الأمراء والقادة العسكريين بشكل إقطاعات لهم ، فيها حق الاستغلال والحكم والولاية . ومنعاً

من تحلل هؤلاء من السلطة المركزية ، جعل « نظام الملك » إقطاع الشخص الواحد في عدة أمكنة متباعدة ، كما حصر توليته بحقوق الاستغلال دون التوريث ، وقرر عليهم التزامات عسكرية ومالية معينة . وقد استمر النظام الإقطاعي في عهد الدولة الأيوبية على الشكل الذي قرره السلاجقة من قبل . إذ كان مورد الدولة الأساسي هو الإقطاع الحربي ، وقد أدخل صلاح الدين على هذا النظام ما يسمى بالبدل ، أي أن يدفع الفلاح — إذا أراد ذلك — كميات من الشعير أو الفول بدلا من القمح مثلا .

## ٢ — العهد الصليبي :

لقد حمل الاستعمار الفرنسي معه إلى منطقة الشرق نظمه الإقطاعية التي كانت سائدة في أوروبا . واتخذت منطقة جبل عامل من بين جميع المناطق اللبنانية في هذا العهد طابعا خاصا بها . إذ كانت سيطرة الصليبيين ولمرحلة طويلة على المنطقة كلها ، كما كانت تعتبر من المناطق التي يجب على الأميرنج ، حفاظا على بقائهم ، التمسك بها لكونها تمد مملكة بيت المقدس بالفلال وتشكل مع إمارة الجليل سورا حديديا لها .

ولما كان امتلاك الصليبيين للأرض قد نشأ عنه بالضرورة امتلاكهم للسلطة ، فقد نشأ امتزاج بين الأرض والسلطان في منطقة جبل عامل ، جعل المجتمع يدين بدورته الاقتصادية للنظام الإقطاعي . مما أدى إلى خلق تراتبية اجتماعية يقف فيها السيد الإقطاعي على رأس الهرم ، يليه أسياد المناطق الصغيرة التابعة له ، ثم الطبقة الواسعة من الناس المرتبطة بملكي الأرض بحكم علاقاتها الاقتصادية التي رسختها العلاقات الحقوقية الموضوعة من قبل الإقطاعيين أنفسهم . وهكذا أصبح بحكم هذا النظام سكان جبل عامل أئنانا عند هؤلاء يقدمون لهم الولاء وال إخلاص والتموين أيام السلم والحرب ، وهو ما يفسر وقوف بعضهم إلى جانب الصليبيين في بعض المعارك .



والاقتنان شكلوا في السلم الاقطاعي ادنى الطبقات الاجتماعية في المجتمع العالمي . فالقن فلاح قروي يعيش على قطعة من الارض يقدمها له الاقطاعي ، على أن تتناسب مساحتها مع مقدار اعبائه الاقطاعية ، وهو لا يتمتع بأي حق مدني على سيده ، وان كان القانون من الناحية النظرية يعتبره حرا . فمسيره مرتبط بتعسف الاقطاعي واستبداديته ، لكون العلاقة بينهما مزدوجة من جهة وسيدية من جهة ثانية . وقد تميز قن جبل عامل — نظرا لعدم رسوخ الاحتلال بالقدر الذي يسمح للاقطاعي بمراقبة اقتنائه مراقبة فعلية — بتكوين استثمارات لنفسه وبناء أسرة خاصة به . كما كان القن يمتلك أدوات العمل الزراعي الى جانب الحيوانات والطيور والبذار والعلف والمسكن والابنية الزراعية، ووسائل النقل، والادوات المنزلية.

والفلاح العالمي ارتبط بارضه ارتباطا وثيقا فلم يكن يسمح له بترك ارضه الا نادرا ، لئلا تتعرض المناطق التي يسيطر عليها الصليبيون الى خلل سكاني ، في الوقت الذي كان يمتن فيه الصليبيون الفروسية والحرب ، فكان من الممكن مصادرة أرض الفلاح وطرده منها . الا انه كان مصدر الاستثمار الاقطاعي الوحيد في المجتمع الحربي الى جانب التجارة ، لذلك كان يتم الصاقه بالارض بدلا من تجريده منها .

أما عن استثمار الصليبيين الاسياد للفلاحين ، وان اختلف من مكان الى اخر ، فقد اتخذ عدة أشكال كان من أهمها :

اعمال السخرة : التي يقوم بها الفلاحون بالعمل في الارض الزراعية للسيد . ( الحراثة والبذر وجمع المحاصيل ) ، بالإضافة الى قيامهم بأعمال حرفية مختلفة : كشق الطرق ، وحفر الخنادق، واصلاح الجسور ، واقامة السدود ، وتشبيد القصور والحصون . وكان الفلاح مرغبا أيضا على دفع عدة مقررات تشمل المكوس على التجار ، والضرائب المختلفة ، كضريبة الرأس ( رمزا للعبودية ) ،

وضريبة العشر على الانتاج . وهنا يذكر « ابن جبر » أن الصليبيين كانوا يأخذون من سكان جبل عامل الذين يقطنون بين « تبين » و « عكا » نصف الغلة عند اوان ضمها ، وجزية على كل رأس ديناراً وخمسة قراريط ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضا .!

أما الاختكارات فقد كانت متنوعة أيضا وتشمل : ( الطاحونة والمعصرة والفرن ) بالإضافة الى ما كان يفرض على الفلاح من « الحلو » عند انتقال حق حيازة الارض من فرد الى اخر .

وللدلالة على مدى استغلال الصليبيين للمناطق التي سيطروا عليها ما ذكره « غوشيه شارتر » ( Foucher de chartre ) أحد مؤرخي الحروب الصليبية المعاصرين لها ، فقال : ما معناه « ان الغربيين قد تجولوا الى سكان شرقيين .. فالفرنسيون والايطاليون ليسوا الان سوى مواطنين فلسطينيين وان ابن مدينة الريمس او مدينة شارتر قد تحول الى صوري أو انطاكي . لقد نسي الفرنجة أصلهم ، بحيث أصبح الواحد منهم يمتلك بيتا وعائلة ويتكلم لغة البلاد . ومن كان هناك فقيرا أصبح هنا يتمتع ببجوحة العيش ، ومن لم يكن يملك في أوروبا حتى ضيعة صغيرة أصبح هنا سيدا لمدينة بأكملها . فلماذا نرجع اذن الى الغرب طالما الشرق يحقق رغباتنا ؟ »

### ٣ — العصر المالكي

استفاد المالك من تجربة الايوبيين والصليبيين فربطوا اقطاع الارض بالتنظيم العسكري واعتبروا الارض ملكا للسلطان وجنوده . وكانت أهمية الاقطاعية توازي أهمية الرتب العسكرية . بل ان أهمية الفرد في العهد المملوكي كانت تختلف بحسب الطبقة التي ينتمي اليها ، كما ان العلاقة بين الطبقات نفسها كانت تختلف باختلاف وضعها في السلم الاقطاعي . وعلى هذا الاساس شكلت



منطقة جبل عامل جزءا من هذا التنظيم الذي فصله « القلقشندي »  
من حيث الالقاب والملابس وأنواع الوظائف . أما « المقريري » فقد  
جعل المجتمع الملوكي سبعة أقسام :

- أهل الدولة
- أهل اليسار من التجار
- أولو النعمة من ذوي الرفاهية
- الباعة
- أهل الفلاحة والحراثة وسكان القرى والريف .
- الفقراء من الفقهاء وطلاب العلم والجنود والإجراء وأصحاب المهنة
- ذوو الحاجة

بعد جلاء الصليبيين شعرت العائلات الارستقراطية — ومنها  
شيعة كسروان ، مالكة الارض ، أمام التقسيم الجديد للارض  
والسلطة — أن مصالحها مهددة ببروز قوة المماليك الذين أرادوا  
مركزة السلطة وحصرها بين أيديهم ، فاعتبروا أن لبنان وسورية  
وفلسطين قسم لا يتجزأ من دولتهم . وأمام تمسك الكسروانيين  
بسلطتهم ، واستغلال التنوخيين لهذا النزاع ليوسعوا اقتطاعهم على  
حساب الشيعة ، خرج أحد قواد المماليك من دمشق بجيش عظيم  
أوضرب ضياعهم وأقطع كرومهم ومزقهم بعدما قاتلهم أحد عشر يوما  
وملك الجبل عنوة ، ووضع فيهم السيف ، وأسر ستمائة رجل ،  
وغنم العسكر منهم مالا عظيما ، فهاجر الشيعة على أثرها ، الى مناطق  
جنوب لبنان وخاصة منطقة « جزين » منه . وازاء فشل جميع  
الحركات الدينية التي قامت في منطقة جبل عامل ضد المماليك استغل  
« بنو بشارة » موالاتهم للمماليك الذين أقطعوهم منطقة جبل عامل ،  
ولم ينته دور هذه العائلة الاقطاعية حتى أوائل القرن السادس  
عشر ، عندما قضى عليها أمراء البقاع من « آل الحنشل » .

### ٣ — العلاقات الاجتماعية والثقافية

#### في جبل عامل في العهد الصليبي

تعتبر دعوة « بابوية » القرون الوسطى لتخليص بيت المقدس  
من المسلمين في جوهرها دعوة دينية . فالعامة تقبلتها اثر الروايات  
المتواترة عن اضطهاد المسيحيين الحجاج وتخريب كنيسة القيامة .  
ومع ذلك طفت النوازع الدينية في هذه الحروب على النوازع  
الدينية ، حيث ان غالبية الصليبيين — من ملوك وقادة وبتشجيع  
من الجمهوريات الايطالية التجارية — اشتركوا في هذا الغزو .  
بغية تحقيق مكاسب سياسية واقتصادية في الشرق العربي .

ولهذا ، فالحملة الصليبية الرابعة بدل أن تتجه نحو القدس  
لتخليصها من الايوبيين جنحت نحو القسطنطينية . واستولت عليها ،  
ونهب الصليبيون كنائسها وأديرتها .

وفي الواقع ، ان ما قيل عن اضطهاد السلاجقة للمسيحيين لا  
يدخل ضمن خطة عامة ومرسومة بقدر ما يشير الى بعض الحوادث  
الفردية التي تعرض فيها الحجاج المسيحيون لاعمال السلب  
والنهب . وبطريق القدس في هذه الاونة يذكر في احدى رسائله  
« ان المسلمين قوم عادلون ، ونحن لا نلقى منهم أي اذى أو تعنت » .

فعلى الرغم من الصبغة الدينية التي اتسمت بها هذه الحرب ،  
وعلى الرغم من انحياز بعض نصارى لبنان الى جانب الصليبيين ،  
فالتاريخ الاجتماعي يرفض اعتبارها انقساما دينيا أو حربا طائفية ،  
لان السبب الحقيقي لوقوف هؤلاء النصارى الى جانب الصليبيين  
يرجع في أساسه الى عاملين اثنين :



اولا : ان نمط الانتاج الاقتصادي في ذلك الوقت كان يتخذ شكلا اقطاعيا . ولهذا كان من مصلحة اسياد لبنان من المسيحيين ، بما لكلمة السيد من مدلول اقطاعي ، أن يجبروا اتباعهم على الوقوف الى جانب الفاتحين الجدد الذين عملوا على تحريرهم طمعا في كسب اراض جديدة يضمونها الى اقطاعاتهم على حساب ولاء وحكام الدولتين الفاطمية والسلجوقية .

ثانيا : ان جوهر العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة في مجتمعات العصور الوسطى هي الرابطة الدينية ، لان المعنى الحقيقي للقومية لم يكن واضحا في هذا الوقت بقدر وضوح الولاء الديني . ولهذا اطلق على هذه العصور تسمية « عصور الايمان الديني » .

ولكن ما ان أصبح الصليبيون اسياد البلاد حتى أخذوا بمعاملة المسيحيين والمسلمين على السواء وكأنهم اتباع ( نصف عبيد ) ، مما أدى الى قيامهم بفدّة انتفاضات ( باعتراف مؤرخ الصليبيين وليم الصوري ) بمساعدة المسلمين ، مسجلين بذلك صفحة ناصعة في تاريخ العلاقات الاجتماعية بين اللبنانيين جميعهم .

ولكن سرعان ما كانت العلاقات تستقر بين الطرفين نتيجة لضرورة التعامل التجاري والحوافز الاقتصادية التي كانت تربطهما . وابن جبير الذي زار لبنان في هذه الفترة يخبرنا قائلا : « من العجب ان النصراني المجاورين لجبل لبنان اذا رأوا به بعض المنقطع من المسلمين جلبوا لهم القوت واحسنوا اليهم ، ويقولون هؤلاء ممن انقطع الى الله عز وجل فتجب مشاركتهم . »

اما في وصفه لحالة سكان جبل عامل في تلك الفترة فيذكر قائلا : « رحلنا من تبين ، دمرها الله ، ( اشارة الى أنها بأيدي الافرنج ) ، وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة ، سكانها كلهم

مسلمون ، وهم من الافرنج على حالة ترفيه ، نعوذ بالله من الفتنة . ولا أدل على الحياة الاجتماعية المشتركة التي عاشها المسلمون والنصارى في مدينة صور من وصف ابن جبير أيضا لهرس افرنجي يشترك فيه كلا الطرفين :

« خرجت ( العروس ) تنهادر بين رجلين يسكنها من يمين وشمال ... وهي في أبهى زي ، وآخر لباس ، تسحب اذيال الحرير المذهب سحبا على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها وهي رافلة في حليها وحللها تمشي فترا في فتر مشي الحماة أو سير الفحامة ، نعوذ بالله من فتنة المناظر ، والمسلمون وسائر النصراني من النظر قد عادوا في طريقهم يتطلعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك » .

ولما كان المجتمع الصليبي في منطقة جبل عامل يتشكل بأسره من العساكر والتجار ، فلم يكن في الواقع صالحا لان يخلق أو يقيم مستوى فكريا رفيعا . لهذا كان أثر الصليبيين الحضاري في هذه المنطقة ضعيفا جدا اقتصر على العلاقات الاقتصادية وعلى ما يترتب بين السيد وفلاحيه من علاقات محدودة ضمن اطار ما تمليه المصلحة الحربية . و « اسامة بن منقذ » صاحب « كتاب الاعتبار » الذي كان يعيش الافرنج في تلك الحقبة يروي لنا في باب طبائهم واخلاتهم قائلا : « سبحان الخالق الباريء اذا خبر الانسان أمور الافرنج سبح الله تعالى وقده ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير ، كما في البهائم فضيلة القوة » ! كما يذكر لنا أيضا عن عجائب طبيعتهم ومحاسنهم وغرائب عاداتهم وتقاليدهم ما يتنافى مع عادات وتقاليدهم العرب . وتحت عنوان ليس للافرنج غيرة جنسية يذكر : « وليس عندهم شيء من النخوة والفيرة . يكون الرجل منهم يمشي هو وامراته يلقيه رجل اخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فاذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى . »



ومع ذلك فإن الصليبيين الذين تبادوا ومضى عليهم وقت طويل قد تأثروا بعمادات وتقاليده وثقافة المناطق التي حلوا بها في اللباس والمأكل ومجالس الشرب واللهو وإطلاق اللحي وحجب النساء وتعلم اللغة . فكان « همفري الرابع » سيد تبنين على دراية تامة باللغة العربية ، كما كان رينالد (Raynald) ، سيد صيدا مهتم بالعلم الإسلامي ، أما وليم السوري ، الذي يعتبر من أعظم مؤرخي العصور الوسطى وقد ولد في لبنان فإنه كان يتقن اللغة العربية الفصحى .

أما العاملون فانهم — رفضوا كفرهم من العرب — الأخذ بعمادات وتقاليدهم ، لكونها تتنافى وروح الإسلام بمفهومهم ، فمن يتقن لغة القرآن يرى حطة على نفسه أن يتعلم لغة ( الكفار ) .

أما عن التمازج العرقي بين الوطنيين والإفرنج ، فقد حدث خلال الحروب الصليبية — نتيجة للغزو والسبي وبيع الرقيق — ظهور جيل هجين عليه اسم ( Poulain ) تحول فيما بعد إلى مذهب المنطقة التي وجد فيها . ففي الشمال اعتنقوا مذهب الموارنة ، وفي بلاد العلويين اعتنقوا النصرانية ، وفي الجنوب اعتنقوا مذهب الشيعة ، وما زالت سجناتهم الأوروبية ظاهرة إلى اليوم في بعض مناطقه . كما أن بعض هذه العائلات ما زالت تحتفظ بأسماء لاتينية أمثال عائلة الصليبي ، وبردويل Baldwin ، وفرنجية والدويهي De Douhai ، ودوريان حمله ، وطرييه Torby وغيرها .

#### ٤ — الحياة الاقتصادية

كان الطابع العام الغالب على الحياة الاقتصادية في منطقة جبل عامل قبل مجيء الصليبيين ، هو الطابع الزراعي الرعوي ، إلا أن ازدهار عملية التبادل التجاري في عهد الصليبيين والمالكة فيما بعد جعل مدن هذه المنطقة تنجح إلى التخصص في بعض الصناعات . فاشتهرت صور بصناعة السكر والزجاج والنسيج . والإدريسي الرحالة ( ١١٥٤ ) يذكرها في رحلته قائلا :

« وفي صور يصنع أغزر الزجاج والخزف ، ويصنعون أيضا نوعا من القماش الأبيض لا يعادله قماش آخر من حيث النوع وجودة الصنع ويصدرونه إلى جميع البلدان ، ولا يصنع قماش يضاهيه من حيث جودته في أي من الأقطار الأخرى » . كما أن المصادر الأوروبية أجمعت على أن مدن جبل عامل عرفت أيام الصليبيين صناعة الخزف والزجاج والحلي والنسيج على أنواعه وخاصة مدينة صور التي ازدهرت فيها صناعة الزجاج والخزف . حتى أنه وجد فيها أكبر مضرب للعملة حيث كانت النقود تسك كالدينار الفاطمي ، يحمل شعارا نصرانيا عرف عند تجار البندقية « بالدينار السوري » .

والحروب الصليبية كانت من العوامل المهمة التي ساعدت على تنشيط التجارة في العصور الوسطى . ومثلت المدن الإيطالية الناشطة تجاريا ، المحتكر الوحيد للتجارة بين الشرق والغرب . فلقاء نقل الصليبيين والاشتراك الفعلي في الحروب البحرية ضد المسلمين ، امتلكت هذه الجمهوريات المدن والمرافئ العديدة في الحوض الشرقي للمتوسط . فكان لكل جمهورية تجارية في كل مدينة يسيطر عليها الصليبيون حي خاص بها ، يحتوي على سوق تجاري وكنيسة وقلعة وقنصلية ومأوى للتجار . وكان من بين هذه الموانئ ميناء صور الذي يعتبر من الموانئ المهمة التي تصل إليه بضائع الشرق من الهند والهند الصينية والصين ، لت شحن بعدها نحو أوروبا . كما كان لجغرافية المنطقة أثر هام في ازدهار التجارة فيها . فكان يشقها طرق عديدة بمثابة شرايين حيوية لها . ومن هذه الطرق التجارية التي كانت معروفة والتي اكتسبت المنطقة اتصالا حضاريا غير منقطع مع شعوب المنطقة العربية .

— طريق من صفد تمر عبر ميس وهونين . ومن هونين تهبط الطريق لتتلاقى طريقا آخر ، يمر بالوديان ، وهي التي مر بها ابن جبر وهو في طريقه من بانياس إلى الساحل ، ويسمى الوادي بين هونين وتبنين بوادي الأسطبل . ومنه تعبر القوافل نحو حصن تبنين ( موضع تمكيس القوافل ) لتكمل طريقها باتجاه عكا أو صور .



كما وجدت اثار طريق معبدة تسلكها العربات بين صور وبانياس ،  
ما زالت اثارها باقية الى اليوم .

— طريق القوافل التي تسير عبر ساحل فلسطين حتى تصل الى  
الناقورة وتتابع شمالا على طول الساحل حتى تصل الى الزهراني .  
اما من صور الى صفد فقد وجد في عهد المماليك طريقان يؤلفان  
طريقا واحدا حتى قانا . ومن قانا تتفرع الطريق فتذهب احداها  
الى صديقين ، ياطر دبل ، وادي رميش ، كفر برعم ، صفاف ثم  
صفد . اما الاخرى فتذهب من قانا الى تبين ، كونين ، بنـت  
جبيل ، يارون حتى صفد .  
اما الطريق من صور الى دمشق ، فكانت تمر عبر قبريخا — رب  
ثلاثين ، ابل فبانياس فدمشق .

#### ٥ — الحياة العمرانية

منذ اللحظة التي استطاع فيها الصليبيون أن يضعوا أقدامهم على  
أرض معادية لهم حاولوا أن يقيموا لهم مراكز ثابتة دفاعية وهجومية  
في الوقت نفسه ، وهو تأكيد ثابت على رفض العاملين للاحتلال .  
وهكذا كانت سلسلة الحصون والابراج التي أقاموها على طول  
الساحل الجنوبي الممتد من عكا الى صيدا . كما أقاموا سلسلة أخرى  
من هذه الحصون في داخل منطقة جبل عامل أمنع وأضخم مما  
أنشأوه على الساحل .

هذه القلاع والحصون الساحلية منها والداخلية لعبت دورا  
حضاريا مهما لكونها كانت مراكز التقاء للتفاعل الحضاري الذي كان  
يتم بين وقت وآخر بين السكان الوطنيين من جهة ووفود الإفرنج  
المتعددة والمتغيرة على الدوام من جهة ثانية ومن هذه القلاع  
الصليبية كانت :

١ — قلعة تبين (Tyron) التي أقيمت لتقطع الطريق عن  
المساعدات التي تأتي من دمشق الى صور عبر هذه المنطقة .

٢ — قلعة الشقيف أرنون ، وقد أقيمت لتتحكم في ممرات الليطاني

ولتكون مرصدا لتحركات المسلمين في جهات سفوح جبل حرمون  
وجوار صفد وبانياس .

- ٣ — قلعة هونين : وهي مشرفة على الحولة
- ٤ — قلعة شمع : وهي مشرفة على سهول صور
- ٥ — قلعة دوبي : وتقع بين حولا وشقرا
- ٦ — قلعة مارون : وتقع قرب بلدة دير كيفا .

هذا ، بالإضافة الى ما تركه الصليبيون من الكنائس ، كنيسة  
القديس مرقس في صور وغيرها مما أقيم في صيدا وداخل القلاع  
التي أنشأوها .

وهناك اثار صليبية كثيرة في منطقة جبل عامل لم يكشف عنها  
حتى اليوم . وهي منتشرة في بنت جبيل وبرعشيت وميس الجبل  
ومنطقة التل في مرجعيون ...

هذه القلاع والابراج لم ينج أكثرها من التهديم والتخريب عندما  
طرد الصليبيون من منطقة جبل عامل وذلك خوفا من عودتهم اليها  
مرة ثانية . ورغم ذلك فقد بقي بعضها كمراكز عسكرية مهمة  
استغلت في عهد المماليك والعثمانيين فيما بعد .

#### ٦ — الصليبيات الجديدة

لقد سقط الدور الاول للحركة الاستعمارية الصليبية بطرد  
الصليبيين نهائيا من بلاد الشام ، ليبدأ فصل ثالث من فصول الحركة  
الاستعمارية ، استمر طيلة القرنين الرابع عشر والخامس عشر  
أخذا بعين الاعتبار التطورات الاجتماعية والاقتصادية الجديدة التي  
استجدت في كل من أوروبا ومنطقة الشرق الأدنى .

فبينما كانت البابوية حجر الرخى في صليبية القرن الحادي عشر



للميلاد . نرى هنا دور الملوك والاباطرة يقفز الى الصف الاول بسبب ازدياد الشعور القومي ، وبروز الحركة البورجوازية التجارية النامية على حساب الاقتطاع ، ثم الاتجاه نحو اعلاء المصلحة القومية على حساب الدين .

ومن المشاريع التي وضعت لتحقيق ، صليبية جديدة ، المشروع الذي تقدم به ريمون لول (Raymond Lulle) سنة ١٣٠٥ ، وكان ريمون يتقن اللغة العربية وعلى معرفة تامة بأحوال الشرق . ويتلخص مشروعه بالعمل على كسب المسلمين والمسيحيين الشرقيين عن طريق التبشير ، على ان يقوم ملك أوروبي بحملة عسكرية تشترك فيها بقايا المؤسسات الصليبية العسكرية ( الداوية ، والاستبارية ، والتيتوتون ) . وفعلًا انتشرت الاديرة في كل من سورية ولبنان وفلسطين ، فكان يبلغ عددها في منتصف القرن الثالث عشر نحو ثمانية عشر ديرا ، تتحمل عبئها منظماتان ارهابيتان هما الدومنيكان والفرنسيسكان ، كما أقر مجمع فيينا (Vienne) في فرنسا عام ١٣١١ انشاء ست مدارس لتعليم اللغات الشرقية من بينها اللغة العربية تيسيرا لغاية التبشير .

اما المشروع الاخر الذي تقدم به احد المبشرين ويسمى بركارد فقد أوصى في تقريره الذي قدمه لملك فرنسا ( فيليب السادس ) بعدم الثقة بالمسيحيين الذين ولدوا نتيجة اختلاط الصليبيين الغربيين بالمسيحيين الشرقيين .

والمشروع الثالث الذي تقدم به مارينو سانودو Sanudo فينص على أن احتلال الشرق الأدنى يجب أن يسبقه أضعاف دولة الممالك اقتصاديا في المرحلة الاولى ، ثم يأتي احتلال مصر لتسهيل عملية الاستيلاء على الاراضي المقدسة في الشام .

اما بابوية القرن الرابع عشر فلم تكن لتقف مكتوفة الايدي امام

طرد الصليبيين من الشرق ، ذلك ان هيبته في أوروبا أخذت تتدنى امام قوة الملوك واتجاهات النهضة الحديثة التي أخذت تنمو في أوروبا في هذا القرن . لذلك فقد بدأت تصدر قرارات التحريم ضد الجمهوريات التجارية التي تتعامل مع دولة الممالك ، وخاصة التي يصدر الرقيق عنها ، تصدر الدولة البشري ، او الاخشاب والحديد ، والمادتان الاساسيتان في صناعة السفن الحربية . ومع ذلك فان الجمهوريات التجارية رفضت تنفيذ الاوامر البابوية حرصا على مصالحها الاقتصادية مما مهد ظهور قبرص التي غدت أهم المعاقل الصليبية بعد جلاء الصليبيين عن عكا . فأخذت تقوم بدور بارز في النشاط الصليبي في شرق البحر المتوسط ، وشرع ملوكها يهاجمون موانئ مصر والشام ، ويغيرون على السفن التجارية التي تحمل البضائع للممالك ، ففتحت صفحة جديدة في تاريخ الصليبية . ولم ينته دور هذه الجزيرة الا بعد أن استولى الممالك عليها سنة ١٤٢٦ .

وهكذا ، تعددت وجوه الصليبية وهي في جوهرها ذات وجه واحد هو السيطرة الاستعمارية على هذه المنطقة . ولم يكن الجنرال غورو في الحرب العالمية الاولى سوى المعبر عن حلم الصليبية الجديدة عندما وقف أمام ضريح صلاح الدين في دمشق حين قال : « ها قد عدنا يا صلاح الدين » . وما الاطماع الصهيونية في المنطقة العربية اليوم سوى موجة من موجات الصليبية الجديدة .

وعلى الرغم مما تحفل به هذه الموجة من عناصر الاقتحام وما تتمتع به من قدرات قتالية لم يسبق أن عرفت الفزوات جميعا في الماضي القريب والبعيد ، على الرغم من ذلك فان هذه الموجة الجديدة تصطدم اليوم بمقاومة أشد مراسا وأكثر تصميميا على احراز النصر ولعله النصر الذي سيضع حدا نهائيا لتاريخ الفزو والقرصنة في العالم .

الدكتور محمد مخزوم



## بعض المصادر والمراجع

- **ابراهيم طرخان** : النظم الاقطائية في الشرق الاوسط في العصور الوسطى . دار الكاتب العربي — القاهرة ١٩٦٨
- **ابن اياس** : بدائع الزهور في وقائع الدهور . القاهرة ١٩٦١
- **ابن القلانسي** : ذيل تاريخ دمشق . بيروت ١٩٠٨
- **ابن جبير** : الرحلة . دار التراث بيروت ١٩٦٨
- **اسامة بن منقذ** : الاعتبار ، حرره فيليب حتي بريتون ١٩٣٠ ، مكتبة المثنى — بغداد .
- **المقرئزي** : الخطط . مكتبة المثنى . بغداد .
- **بولياك** : الاقطاعية في مصر وسورية وفلسطين ولبنان . ترجمة عاطف كرم ، منشورات دار المكشوف . ١٩٤٨
- **زكي النقاش** : العلاقات بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية . دار الكتاب اللبناني ١٩٥٨
- **سعيد عاشور** : مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك . دار النهضة العربية : بيروت ١٩٧٢
- **سعيد عاشور** : الحركة الصليبية — جزءان . مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٣
- **ستيف رنسيهان** : تاريخ الحروب الصليبية ٣ اجزاء ترجمة السيد الباز العريني . دار الثقافة . بيروت ١٩٦٧
- **صالح بن يحيى** : تاريخ بيروت . دار المشرق ١٩٦٧
- **فؤاد قازان** : فيليب حتي : لبنان في التاريخ . دار الثقافة بيروت ١٩٥٩

- **كمال الصليبي** : منطلق تاريخ لبنان . توزيع مكتبة راس بيروت ١٩٧٩
- **محسن الامين** : خطط جبل عامل . تحقيق حسن الامين الجزء الاول مطبعة الانصاف ١٩٦١
- **محمد علي مكّي** : لبنان من الفتح العربي الى الفتح العثماني . دار النهار للنشر ١٩٧٧
- **محمد كرد علي** : خطط الشام — ٦ اجزاء الطبعة الثانية — دار العلم للملايين ١٩٦٩

BREHIER, L. , les Croisades 6e éd. paris 1928

DODU, Histoire des Institutions du Royaume Latin de Jerusalem thèse paris 1894

GROUSSET, R. Histoire des Croisades , 3 Vol , paris 1936 .

HEYD, Histoire du Commerce du levant , 2 vol. paris 1885

PERNOUD, R. Les Croisés , paris 1959

Revue de L'orient Chrétien Paris (1896 - 1914).

Revue de l'orient latin , paris ( 1891 — 1902 )

Revue française d'histoire d'outre — mer , paris 1945

Revue historique Paris 1876.

REY, les colonies franque de Syrie aux xii et xiii siècle. paris 1883

PERRIER, Ferdinand. la syrie sous le gouvernemen de mehemet Ali , paris 1842 . p. 234

Volney . Voyage en Egypte et en Syrie pendant les années 1783. 1784 et 1785 . T2 p. 17 .



## جبل عامل في عهد الامارتين المعنية والشهابية ( ١٥١٦ - ١٨٤٢ )

بقلم العقيد الدكتور ياسين سويد

عندما طلب الي المجلس الثقافي للبنان الجنوبي أن أتحدث عن « جبل عامل في عهد الامارتين المهنية والشهابية » ضمن سلسلة من المحاضرات بعنوان « صفحات من تاريخ جبل عامل » كان علي أن أواجه أحد خيارين :

الاول : أن أعتد المنهج التقليدي في كتابة التاريخ وهو القائم على الاهتمام بتدوين الوقائع والاحداث بعد التحري عنها وتحقيقها ، دون الاهتمام بفلسفة هذه الاحداث أو تقييمها سياسيا أو عقيديا ، أو حتى اجتماعيا .

والثاني : ان أعتد المنهج الحديث الذي يتبعه الكثير من المؤرخين المعاصرين وهو القائم على ابراز الاحداث الهامة المؤثرة في المسار التاريخي العام ، مع الاخذ بالمسببات والنتائج ، وذلك في سياق تحليل أو تقييم أو تسييس أو فلسفة هذه الاحداث ، وهذا المنهج هو في نظري منهج التاريخ الهادف .

وبالاضافة الى أن الفترة التي طلب الي التحدث عنها هي من السعة بحيث تمتد الى نحو ثلاثة قرون ونصف القرن من الزمن ( ١٥١٦ - ١٨٤٢ ) فلا يتسع الوقت القصير نسبيا لمحاضرة ما ،

الى الالم بأحداثها البارزة ، مع تحليل أو تقييم أو فلسفة هذه الاحداث ، وبما انني ، أساسا ، من أنصار المنهج التقليدي للتاريخ باعتبار أن المنهج الحديث ، في نظري ، هو أقرب الى فلسفة التاريخ منه الى التاريخ بمعناه الصحيح ، بل ربما مال عن التاريخ الصحيح الى تاريخ تحدد أهداف كتابته سلفا ، فتفسد موضوعيته ، وبما أن الانضباط المهني غالبا ما يورث « الانضباط الفكري » ، فقد عقدت العزم على أن أتبع في محاضرتي هذه المنهج التقليدي ، فأحدثت عن صفحات من تاريخ « جبل عامل في عهد الامارتين » تاركا لغيري تحليل الاحداث وتسييسها وتقييمها وفلسفتها ، ولعل في نية المجلس الثقافي للبنان الجنوبي ، الذي كانت له المبادرة الكريمة في وضع سلسلة المحاضرات هذه ، أن يتبعها بسلسلة أخرى تلبي مطامح الراغبين في بحث التاريخ حسب المنهج الحديث .



## مقدمة

عندما نتحدث عن جبل عامل ، أنها تعني ، من الناحية الجغرافية ، تلك البقعة من بلاد الشام التي راوحت حدودها التاريخية ما بين نهر الأولي وجزين ومشغرة شمالا ، ومرجعيون وبانياس والحويلة شرقا ، والزيب ووادي القرن وسعسع ( الفلسطينية ) ووادي فاره جنوبا ، والتي تشكل ، حاليا ، محافظة لبنان الجنوبي ، بعد أن اقتطع الانتدابان الفرنسي والانكليزي منها ، بموجب معاهدة سايكس بيكو عام ١٩١٦ ، عددا من القرى نذكر منها ، على سبيل المثال ، لا الحصر ، قرى الخالصة وهونين وقديس والنبى يوشع والمالكبة وصلحة وتريخا والمنارة والمطللة وغيرها . ولما من الناحيتين التاريخية والبشرية ، فهو ما سيكون موضوع حديثنا الذي ينحصر في حقبة معينة من الزمن تمتد من أول الفتح العثماني ، وهو ، في نظري ، التاريخ الحقيقي لقيام الامارة المعنية في الشوف ، الى نهاية الامارة الشهابية ، خليفة الامارة المعنية ووريثتها .

وسوف نقسم بحثنا هذا الى موضوعين رئيسيين هما :

- أولا - نظرة في تاريخ جبل عامل في عهد الامارتين المعنية والشهابية ( ١٥١٦ - ١٨٤٢ )  
ثانيا - الوجه العسكري للشخصية العاملة في المهدين المعني والشهابي





## اولا - نظرة في تاريخ جبل عامل في عهد

### الامارتين المعنية والشهابية

#### ١ - في العهد المعني :

ورث العثمانيون ، بعد فتحهم لبلاد الشام ، عام ١٥١٦ ، تنظيمات ادارية واقطاعية واضحة الصورة والمعالم ، بل شبيهة بتلك التي كانوا يعتمدونها في معظم البلدان المحتلة والتابعة لامبراطوريتهم . لذا ، لم يجد الفاتحون الجدد عناء في فهم هذه الانظمة وتبنيها مع ادخال تعديلات طفيفة عليها تتناسب مع الانظمة السائدة في الامبراطورية .

ولما كانت الامبراطورية العثمانية ، في ذلك الحين ، في أوج طموحها التوسعي ، فقد كانت تكتفي من الاقطار التي تفتحها بالضرائب والجند ، تاركة امر الحكم فيها لولاة يتدبرون امورهم بواسطة اقطاعيين غالبا ما يكونون من اهل تلك البلاد ، كما حدث في بلاد الشام ، وفي جبل عامل بالذات ، اذ كانت تحكم هذا الجبل ، في العهد المملوكي ، أسر اقطاعية من الجبل نفسه ، استمرت تحكمه في العهد العثماني على أن تدفع ما يترتب عليها من ضرائب ، وان تسوق الى الحرب ما يترتب عليها من جند .

ولكن الصراع الدائر بين هذه الاسر اقطاعية كثيرا ما كان يبذل الوجوه الحاكمة ، فنرى ان الاسر التي حكمت جبل عامل في العهد المملوكي ومنذ القرن الثالث عشر ميلادية حتى القرن السادس عشر ، مطلع العهد العثماني ، وهي أربع : الاسرة البشارية ، نسبة الى الامير حسام الدين بشار بن أسد العاملي ، والاسرة السودونية ، نسبة الى ال سودون ، وهي ، على الأرجح ، من المماليك المصريين .

والاسرة الشكرية ، نسبة الى ال شكر ، والاسرة الصغيرية ، نسبة الى علي الصغير حفيد الامير محمد بن هزاع الوائلي ، نرى ان هذه الاسر تتصارع فيما بينها لتحل الواحدة منها محل الاخرى في حكم البلاد ، أو تقتسم الحكم فيما بينها ، وهكذا نرى الحكم اقطاعي يبرز بروزا جليا في جبل عامل ، في القرن الثالث عشر ميلادية ، على يد حكام من ال وائل ورثوا الحكم عن الامير حسام الدين بن بشار العاملي ، الذي كان له الفضل في جمع اجزاء هذه البلاد وتوحيدها حتى عرفت فيما بعد باسمه (بلاد بشار) ، ثم ينتقل ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، الى أسرة ال سودون التي استمرت في الحكم نحو مائة وستين عاما ، من عام ١٤٧٨ الى أن انقرضت تماما بعد معركة جرت بينها وبين ال الصغير عام ١٦٣٩ .

وقد شارك في هذه المرحلة من حكم جبل عامل اسرة أخرى ، اصلها من قرية « عيناتا » ، هي أسرة « ال شكر » التي ظلت تنافس « ال الصغير » على الحكم ردحا من الزمن ، وكانت قواعد حكم هذه الاسرة في قرى عيناتا وقانا وتبنين ، ولكنها انقرضت ، هي الاخرى ، بعد معارك جرت بينها وبين ال الصغير في كل من عيناتا وقانا وتبنين ، عام ١٦٤٩ ، حيث قتل معظم رجال ال شكر وفر الباقون ، وتسلم ال علي الصغير حكم البلاد بعدئذ ، وتفردوا به ، فحكموا بلاد بشار الجنوبية ( تبنين وهونين وقانا ومعركة ) ، وجعلوا تبنين قاعدة لهم ، وقد استمرت هذه الاسرة في حكم جبل عامل طويلا ، ولعبت دورا حاسما وهاما في سياسة جبل عامل وتاريخه ومصيره .

الا انه ، بعد الفتح العثماني مباشرة ، برزت الى الوجود السياسي في جبل عامل اسرتان جديدتان ، أخذتا تنافسان الاسرة الوائيلة على الزعامة والسياسة ، هما : ال صعب حكام الشقيف من بلاد بشار الشمالية ، وقاعدتهم النبطية ، وال منكر حكام اقليبي الشومر والتفاح من بلاد بشار الشمالية أيضا ، وقاعدتهم جباع . ورغم ان ال علي الصغير كانوا اكثر هذه الاسر نفوذا واقواها



شكيمة ، فقد كان لكل أسرة استقلالها الإداري بالمقاطعة أو المقاطعات التي تحكمها ، فالحاكم الإقطاعي حر في إدارة مقاطعته ، يتصرف بشؤونها ويحمي حدودها ، دون أن يكون هنالك سلطة فوق سلطته ، أما سلطة الدولة ، فكانت اسمية ، وتتخلص في حقها باستيفاء الضرائب والرسوم المقطوعة وفقا لشروط الالتزام ، ودون أن يكون لها الحق بالتدخل في الشؤون الداخلية للبلاد ، وكان لكل حاكم جنده الخاص به للدفاع عن مقاطعته ، حتى إذا هوجم واحد منهم هبت باقي المقاطعات تسانده وتؤازره . وقد تمكنت هذه الأسر الثلاث ، في فترات مختلفة ، وبفضل قوتها وضعف الحكام الخارجيين ، من الاستقلال بمقاطعاتها استقلالا ذاتيا يكاد يكون تاما .

إلا أن ذلك لم يكن يعني أن جبل عامل خارج عن سلطة الإمبراطورية العثمانية ، فقد كان الولاة العثمانيون « يلزمون » جباية الرسوم والضرائب المترتبة على جبل عامل إلى من يرغب من رجال الإقطاع في ذلك العهد ، عاما بعد عام ، وكان أول من تقدم من الـ معن لالتزام مقاطعات جبل عامل هو الأمير فخر الدين المعني الثاني أمير الشوف ، الذي التزم سنجقية صفد عام ١٦٠٣ من مراد باشا والي الشام ، ونازعه عليها بعد ذلك الأمير يونس الحرفوش أمير البقاع ، وكان هذا النزاع سببا لخصومات ومعارك شديدة بين الطرفين كان النصر في نهايتها للأمير المعني ، الذي استطاع أن يستولي على جبل عامل طيلة مدة حكمه في إمارة الشوف ، ففي عام ١٦١٢ كانت قلعتا بانياس والشقيف بيد فخر الدين ، وكان وكيله على بانياس ، الشيخ حسين اليازجي ، وكيلا كذلك على القسم الشرقي من بلاد بشارة ، ووكيله على الشقيف ، الشيخ حسين الطويل ، وكيلا على اقليم الشومر والتفاح .

وفي أثناء غياب الأمير فخر الدين بتوسكانة ( ١٦١٢ - ١٦١٨ ) تسلم أخوه الأمير يونس بلاد عاملة ، متخذا صور مقمرا له ، كما تسلم الشيخ حسين اليازجي مقاطعة تبنين ، وجعلها مقمرا له ،

« وكانا يقودان الشعب بأجمعه وقت الحاجة ويوجهانه حيث أرادا » ، حتى أن العاملين حاربوا إلى جانب المعنيين ضد الـ سيفا حكام طرابلس ، في وقعة الناعمة عام ١٦١٦ ، وبقيادة ابنه الأمير علي المعني ، فكانت ميسرة الجيش المعني في هذه الوقعة من العاملين ومن رجال الأمير علي الشهابي حاكم وادي التيم ، كذلك حارب العاملين إلى جانب المعنيين ، في معركة عنجر الشهيرة عام ١٦٢٣ ، ضد مصطفى باشا والي الشام وحلفائه الحرفوشيين حكام البقاع والسيفيين حكام طرابلس ، إذ اشتركوا في هذه المعركة بفرقة قوامها ألف مقاتل بقيادة مصطفى مدبر الأمير فخر الدين ، كما حاربوا إلى جانب فخر الدين في حملته على عكار عام ١٦١٨ - ١٦١٩ ، وكانوا بقيادة ابنه الأمير علي ، وفي معركة فارا التي جرت في أثناء حملته على فلسطين عام ١٦٢٣ ، وكانوا بقيادة طويل حسين بلكباشي .

إلا أن غياب الأمير فخر الدين عن المسرح السياسي عام ١٦٢٣ ، أضعف سلطة خلفائه المعنيين ، الذين لم يكن حكمهم في جبل عامل مستمرا ومستقرا تماما ، بل تخللته ثورات واضطرابات كثيرة ، وهكذا نرى العاملين يخوضون ، في فترة الحكم المعني بالذات ، معارك عديدة ضد المعنيين أنفسهم وضد الولاة العثمانيين ، وأهم هذه المعارك :

— **وقعة أنصار ( ١٦٣٨ )** : كان العثمانيون قد ولوا على الإمارة المعنية ، بعد أسر فخر الدين وسوقه إلى الاستانة عام ١٦٣٣ ، الأمير علي علم الدين زعيم الحزب اليمني ، والخصم للدود لال معن ، بينما فر الأمير ملحم بن الأمير يونس المعني ، وهو الأمير الوحيد الذي بقي حرا من أسرة الـ معن ، إلى قرية « عرنا » بسفح جبل الشيخ ، حيث لجأ إلى أحد أنصار أسرته ، ومن هناك بدأ يتصل بأنصاره من الحزب القيسي ، مهيبا نفسه لمعركة فاصلة مع العثمانيين وحلفائهم اليمنيين ، الحكام الجدد للامارة ، فخاض ، ضد هؤلاء وأولئك ، معركة في أرض « القيراط » ، قرب قرية « مجدل معوش » بالشوف ،



عام ١٦٣٥ ، كان النصر فيها حليفه ، وفر الأمير علي علم الدين اليمني على أثر هذه المعركة وتشتت جيشه ، فلجأ إلى قرية « انصار » بجبل عامل مستنجدا بمشايعها من آل منكر ، وكانوا يوالونه ، ضد الأمير المعني ، فلما علم الأمير ملحم بذلك جهز جيشا وقصد « انصار » عام ١٦٣٨ لمداومة الأمير علي فيها ، ولكن هذا الأخير تمكن من الفرار وأرسل يطلب النجدة من والي الشام ، الذي أرسل لمساعدته فرقة من السكمان توجهت لقتال الأمير ملحم ، الذي ما أن علم بتوجهها إليه ، حتى ترك « انصار » بعد أن هدمها وقتل نحو ألف وخمسمائة من أهلها ، إذ اتهمهم بالانحياز إلى خصومه اليمنيين .

— وقعة عيناتا ( ١٦٦٠ ) : الحق جبل عامل بباشوية صيدا عند انشائها هذا العام ( ١٦٦٠ ) ، وقد جرت هذه الوقعة بين العاملين وبين علي باشا الكبرلي أول وال على صيدا ، ولم يصلنا أي تفصيل لها ، فقد ذكرها الشيخ علي السبتي في المجموعة التي نشرها في مجلة العرفان إذ قال : « ان الشيعة ، في أوائل حكم الاتراك العثمانيين ، وقعت بينهم وبين الطوائف المجاورة عدة معارك كانت الحرب فيها سجلا ، فمنها معركة انصار سنة ١٠٤٨ هـ = ١٦٣٨ م مع الأمير ملحم بن معن ، ومعركة عيناتا سنة ١٠٧٠ هـ = ١٦٥٩ م ، ومعركة النبطية سنة ١٠٧٧ هـ = ١٦٦٦ م ومعركة وادي الكفور سنة ١٠٧٨ هـ = ١٦٦٧ م الخ .. » دون أن يذكر أي تفصيل عن هذه الوقعة ، كذلك ذكرها المؤرخ الأمير حيدر أحمد الشهابي ، في أحداث العام ١٠٧١ هـ = ١٦٦١ م إذ قال : « وفي هذه السنة قدم علي باشا والي صيدا ، وهو أول من تولاه من الباشوات ، وكانت فتنة عظيمة بينه وبين مشايخ المتأولة » دون أن يذكر أسباب هذه الفتنة وموقعها ، وذكرها المؤرخ محمد تقي آل فقيه مستندا في تحديد موقع المعركة إلى كتاب « جبل عامل في قرنين » ، وهو مجموعة من المقالات التي نشرها الشيخ علي السبتي في العرفان ، ويكتفي آل فقيه من ذكر هذه الوقعة بقوله : « ان الأمير ملحم مات سنة

١٠٧٠ هـ وفر ولده قرقماز وأحمد ، وأصبحت صيدا باشوية ، ودخلها الباشا على أثر هذا الانقلاب ، فحاول العاملون استغلال الموقف ، فقامت الحرب على ساق بينهم وبين الباشا الجديد ، وكانت الخسائر فادحة والضحايا كثيرة والواقعة عظيمة . ويضيف قائلا : « ولا نعرف ماذا عقبته ، ولا أي شيء أنتجته على التفصيل ، غير أننا نظن أنهم — أي العاملون — تولوا إدارة البلاد بأنفسهم » .

— وقعة النبطية ( ١٦٦٦ ) : جرت بين العاملين والأمير أحمد المعني آخر حكام المعنيين ، وقد ذكرها السبتي في مجموعته مشيرا إلى انتصار المشايخ العاملين فيها ، وأوضح الشيخ أحمد رضا بعض أسبابها فقال : « واغتنم المتأولة فرصة الوهن الذي طرأ على الحكومة المعنية في زمن الأمير أحمد فأعلنوا استقلالهم عن لبنان وخرجوا عن طاعة أمرائه ، فغزاهم الأمير أحمد سنة ١٠٧٧ هـ في النبطية مقر الصعيبة حكامها ، فارتد عنها عسكره منهزما بعد ملحمة كبرى ، فاستجاش عليها والي صيدا ، فاتاها هذا في العام القابل غازيا ، وكان نصيبه كنصيب صاحبه المعني ، حيث لحق المتأولة المنهزم إلى عين المزارب قرب صيدا » ، وذكرها الشيخ سليمان ظاهر بقوله : « من الحوادث التي وقعت في النبطية ، ولم يذكرها المؤرخان الدبس والشدياق ، وجاء ذكرها في المخطوطات العاملة ، ان الأمير أحمد المعني جاءها سنة ١٠٧٧ هـ ، في أربعة آلاف رجل ، لمقاتلة أبي صعب ، فقاتلوه وكسروه كسرة عظيمة ، وقتلوا من عسكره زهاء مائتي رجل وقتل منهم خمسة رجال » إلا أن محمد جابر آل صفا روى هذه الوقعة بشكل آخر ربما كان أقرب إلى المنطق والواقع إذ قال : « حتى إذا ... ظهر الوهن في حكومة المعنيين ، نهض زعماء العشائر من بني عاملة واجتمعت كلمتهم .. فنظموا صفوفهم وثاروا في سنة ١٠٧٧ هـ = ١٦٦٦ م ثورة رجل واحد ، وطردهوا عمال أرسلان باشا وفتكوا غيهم ، فأرسل والي حملة عليهم مستعينا بجنود آل معن ، فنازلوهم في النبطية ووادي الكفور ، وكان الفوز للشيعة » .



## — وقعة وادي الكفور ( ١٦٦٧ ) : ذكرها بعض المؤرخين

العاملين مثل السبتي وال صفا وال فقيه ( نقلا عن السبتي ) دون أن يذكروا أي تفصيل لها ، كما لم يذكرها باقي المؤرخين أمثال الشهابي والدويهي والدبس والشدياق ، وربما كانت امتدادا لوقعة النبطية كما صنفها الاستاذ ال صفا مبينا أن الحملة التي أرسلها الوالي ، بالتعاون مع المعنيين ، قاتلت العاملين « في النبطية ووادي الكفور » .

— معارك أخرى : وقد أشار بعض المؤرخين العاملين إلى معارك أخرى جرت في هذه الفترة دون أن يسموها ، فقال الشيخ أحمد رضا ، بعد ذكره لوقعة انتصار وال نبطية : « ثم استعرت نار الوقائع بين أمراء لبنان ومشايخ المتابعة فكانت بينهما سجالا » وقال ال صفا بعد ذكره لوقعة النبطية : « ودامت المناوشات نحو ثلاثين سنة ، حتى سنة ١١٠٩ هـ = ١٦٩٧ م » وقد تبعهم في ذلك بعض المؤرخين العاملين مثل ال فقيه وسواه ، إلا أننا لا نجد لذلك أثرا عند مؤرخين أمثال الشهابي والدويهي والدبس والشدياق ، وربما كان مرد ذلك هو أن جبل عامل لم يكن في هذه الفترة تحت سلطة المعنيين مباشرة .

## ٢ — في العهد الشهابي :

سقطت الإمارة المعنية عام ١٦٩٧ وخلفتها الإمارة الشهابية حيث تولى الأمير بشير الأول الحكم فيها ، ورغم تبدل الحكام في هذه الإمارة ، فإن الخط السياسي العام الذي اتبعه زعماء جبل عامل تجاه الحكم الشهابي لم يتبدل عما كان عليه تجاه الحكم المعني ، إذ أنه ، كما في عهد الأمراء المعنيين الذين خلفوا فخر الدين الثاني ، لم يكن للأمراء الشهابيين في جبل عامل حكم ثابت مستقر ، ورغم أن كلا من هؤلاء الأمراء كان يطمح إلى أن يتولى حكم هذا الجبل ، بضمان من والي صيدا ، فغالبا ما كانت مهمتهم تنحصر في معاونة هؤلاء

الولاة في جباية الأموال والضرائب المترتبة على العاملين ، إذا تمتع هؤلاء عن دفعها ، وهكذا نرى بشيرا الأول ، بعد عام واحد من توليه الحكم ، أي عام ١٦٩٨ ، يلبي دعوة أرسلان باشا المطرجي والي صيدا ، ويحف إلى جبل عامل بجيش قوامه ٨ آلاف مقاتل ، ليخضع أحد زعمائه الشيخ مشرف بن علي الصغير ، الذي خرج على الوالي وقتل بعض أعوانه واعتصم في قريته ( المزيرة ) ، أو المزرة ، أو مزرة مشرف ) ، فيقاتله الأمير فيها وينتصر عليه ويقتل عددا كبيرا من جماعته ، ثم يقبض عليه وعلى أخيه محمد بن علي الصغير ويسوقهما إلى الوالي الذي يسجنهما ، وتطلق يد الأمير مقابل ذلك في صفد ومقاطعات جبل عامل ( بلاد بشارة ومقاطعة الشقيف وأقليمي الشومر والتفاح ) . وتسلم الأمير حيدر عام ١٧٠٦ حكم الإمارة الشهابية ، فكان أول عمل قام به هو محاولة السيطرة على جبل عامل ، وكان بشير باشا الذي أصبح واليا على صيدا ، قد أعاد الشيخ مشرف إلى حكم مقاطعته في بلاد بشارة ( وكان أرسلان باشا قد سبق وأطلق سراحه ) ، والتمس الأمير حيدر من بشير باشا حكم جبل عامل بعد أن أغراه بالمال ، فأقطعته إياه ، وفي عام ١٧٠٧ زحف الأمير حيدر على جبل عامل بجيش قدره بعض المؤرخين بـ ١٢ ألف مقاتل ، ( يزبك ، أوراق لبنانية ، حزيران ١٩٥٦ ، ص ٢٧٧ ) ، وكان ال الصغير قد اعتصموا ، مع حلفائهم من ال منكر حكام اقليمي الشومر والتفاح وال صعب حكام الشقيف ، في بلدة النبطية ، فهاجمها الأمير حيدر ، ودارت بين الفريقين معركة انتهت بانتصار الأمير الشهابي واحتلاله للبلاد ، حيث نصب عليها متسلما من قبله هو الشيخ محمود أبو هرموش ، بينما تشتت ال الصغير وحلفاؤهم تاركين حكم الجبل للأمير الشهابي .

ولم يكن الحال بين الشهابيين والعاملين في عهد الأمير ملحم ( ١٧٣٢ — ١٧٥٤ ) بأفضل منه عما كانت عليه مع من سلفه من حكام هذه الإمارة ، إذ استهل الأمير ملحم المذكور حكمه باظهار طموحه للتوسع نحو مقاطعات جبل عامل ، ففي عام ١٧٣٤ طلب



من سليمان باشا العظم والي صيدا أن يقطعه بلاد بشارة ، وكان زعماءها، من ال الصغير، قد خرجوا عن طاعة الوالي وامتنعوا عن اداء الاموال الاميرية اليه ، فأقطعه اياها ، فقام الامير ملحم بحملة على هذه البلاد حيث نازل زعماءها في بلدة ( يارون ) فهزمهم ، وفر ال الصغير الى القنيطرة .

ويذكر دي لان De Lane قنصل فرنسا بصيدا عام ١٧٣٤ هذه الواقعة في رسالة وجهها بتاريخ ٢٠ اب من العام نفسه الى الكونت دي موريباس C. De Maurepas وزير الدولة الفرنسية ، فيقول « ان الصدر الاعظم حائق بسبب رفض مشايخ المتاولة دفع الضرائب وبعض الاموال المترتبة عليهم له ولحكاه ، وقد كلف سليمان باشا ( والي صيدا ) وامير الدروز - يقصد الامير ملحم - مهمة حصار قلاعهم وتصفيتهم جميعا ، وهكذا دخل الامير ، عند تلقيه هذا الامر ، بلاد المتاولة ، بجيش مقداره خمسة عشر ألف مقاتل حيث نشر النار والدماء في كل مكان حل فيه » .

Ismail Adel, Documents diplomatiques et consulaires , T. 2 p77 وفي عام ١٧٤٣ خرج المناكرة والصعبية على الوالي سعد الدين باشا العظم ، والي صيدا فأرسل الامير ملحم لتأديبهم ، ودارت بين الفريقين معركة ضارية في جوار قرية ( انصار ) انتهت بهزيمة العاملين ولجؤهم الى داخل القرية ، حيث أقدم الامير ملحم على اقتحامها واحراقها ، ثم عاد بعسكره الى دير القمر ، بعد أن خسر العاملون في هذه المعركة نحو الف وستماية قتيل ، كما قبض الامير على أربعة من مشايخهم .

وفي عام ١٧٥٠ اعتدى المناكرة على اقليم جزين وكان داخلا في حكم الجنبلاطين حلفاء الشهابيين ، فقتلوا اثنين من اتباع الشيخ بشير جنبلاط حليف الامير ملحم ، فحشد هذا الاخير جيشا وسار لقتالهم حيث لقيهم في قرية ( جباع الحلاوة ) فقاتلهم وقتل منهم نحو ثلاثماية رجل .

مرت ولاية الاميرين منصور وأحمد الشهابيين ( ١٧٥٤ - ١٧٦٣ ) ثم ولاية الامير منصور منفردا ( ١٧٦٣ - ١٧٧٠ ) ، على الامارة الشهابية دون حوادث ذات أهمية بين العاملين والشهابيين ، وذلك لان الامراء الشهابيين كانوا منشغلين في هذه الفترة بالخصومات والصراعات الداخلية فيما بينهم ، مما قضي للعاملين نوعا من الاستقلال الذاتي والتصرف الحر ، الا أن ذلك لم يمنعهم من التحسب واليقظة ، خاصة وقد لقوا في خلال انتفاضاتهم المتعددة على الحكم العثماني ، وبالتالي على الحكيم المعني والشهابي ، من الشدة والقسوة ما جعلهم لا يطمئنون الا لحكم زعمائهم ، وكان عليهم ، في الوقت نفسه ، أن يزيدوا من قواهم الذاتية من جهة ، وان يبحثوا عن تحالفات عسكرية تتيح لهم الصمود والمنفعة من جهة أخرى ، وفي هذه الاثناء ، قام في العاملين زعيم وحد صفوفهم وجمع كلمتهم هو الشيخ ناصيف النصار من ال الصغير الذي وصفه « شيفالييه دي توليس » « Chevalier de Taulés » قنصل فرنسا بصيدا في رسالة منه الى « الدوق ديغويون » « Duc D'Aiguillon » بتاريخ ٢٨ حزيران ١٧٧٢ بانه « الشيخ الكبير الذي اشتهر في كل سوريا بشجاعته » Ismail , Documents , T. 2 p. 240

كما قام في ديار عكا وصفد حاكم طموح وقدير ومتحفز هو الشيخ ظاهر بن عمر بن أبي زيدان ، المعروف بظاهر العمر ، تسلم تلك الديار من والي صيدا بشير باشا في أول عهده بالولاية عام ١٧٠٦ ، وأخذ يرقب ، بعين حذرة ويقظة ، ما يجري في شمال بلاده وجنوبها ، ففي مصر حاكم يحلم بالتوسع شمالا ، نحو بلاد الشام ، ويطمح للتعاون مع حاكم قدير في فلسطين يسهل له دخول تلك البلاد ، هو علي بك الكبير وقائده محمد بك أبو الذهب ، وفي جبل عامل مشايخ عانوا الكثير من الظلم العثماني المتحالف مع امراء ال معن ومن بعدهم ال شهاب ، فأضخوا تواقين للتحالف مع قوة تساندهم وتعزز قوتهم وتشد أزهم ، وهكذا التقى في ساحة فلسطين وعلى امتدادها شمالا حتى صيدا ، ثلاث قوى تكمل بعضها ، هي قوة المصريين



والصفديين والعاملين ، وقد بلغ هذا التحالف أوجه عام ١٧٧١ مما حدا بدراغون Confédération النائب التجاري للجالية الفرنسية بصيدا ، الى تسميته « باتحاد كونفدرالي » Confédération بين مصر والشيخ ظاهر العمر والمتاوله ضد السلطان ، وذلك في رسالة بعث بها الى الدوق ديغولون D'Aiguillon وزير الدولة الفرنسية بتاريخ ٢ ايار ١٧٧١  
Ismail , Documents , T2 , p. 169

الا ان التحالف بين العاملين والشيخ ظاهر العمر لم يكن سهلا في بدايته ، فقد سبقه صراع مسلح بين شيخ مشايخ العاملين ناصيف النصر والشيخ ظاهر ، حيث تقاتلا في عدة معارك أهمها معركة تريبخا عام ١٧٥٠ التي هزم فيها ظاهر ، وانتهت الحرب بين الفريقين بمعاهدة تحالف ودفاع وقعت بينهما في عكا عام ١٧٦٧ « وحلفا اليمين على السيف والمصحف ان يكونا وشعباهما متضامنين متصافيين ما دامت الارض والسماء » ، وكان هذا التحالف قد تم بناء لوساطة بين المتخاصمين قام بها الامراء الشهابيون وحلفاؤهم المشايخ الجنبلاطيون ، وكانوا على علاقة حسنة بالفريقين في ذلك الحين . يحدثنا عن ذلك قنصل فرنسا في صيدا « كليرامبو Clairambault Duc De Braslin بتاريخ ٢٣ نيسان ١٧٦٧ يقول فيها « الشيخ ناصيف النصر هو اليوم شيخ مشايخ المتاوله الذين يقيمون من صيدا حتى أرض عكا ، وهو يحمي الشيخ عثمان ابن الشيخ ظاهر العمر ، الذي لجأ اليه - وكان الشيخ عثمان قد خرج عن طاعة أبيه فلجأ الى الشيخ ناصيف - وبما ان الحرب في هذه البلاد تهدأ ثم تتجدد كل ثلاثة أشهر ، فانها تنتهي بخراب أحوال الفلاحين ، وباعطاء المبرر لمشايعهم لتأجيل دفع الضرائب والمستلزمات المالية للوالي . وقد وصل الى هنا - أي الى صيدا - الامير اسماعيل - أمير وادي التيم - وثلاثة من مشايخ الدروز هم الشيخ علي جنبلاط والشيخ عبد السلام العماد والشيخ كليب النكدي ، وهؤلاء يعاضدون الشيخ

ناصر ، فعملوا على احلال الوفاق بينه وبين الشيخ ظاهر العمر .  
Ismail , Documents , T2 p. 150 - 151

ولا يغربن عن بالنا ان هذا الوفاق قد تم في عهد الامير منصور الشهابي الذي كان كما قيل عنه « لين العريكة لا يخلو من جبانة قليلة » . فعمل على احلال الوفاق محل الخصام بينه وبين العاملين طيلة مدة ولايته ، حتى أضحوا يوالونه حقا .

وما ان تم الوفاق بين الشيخين ناصيف النصر شيخ مشايخ جبل عامل والشيخ ظاهر العمر حاكم صفد وعكا ، حتى انقلب هذا الوفاق الى تحالف وطيد ، نظرا للعداوة التي كانا يكتانها كلاهما للعثمانيين والشهابيين ، وهكذا ، ما ان انتهت ولاية الامير منصور ، وخلفه في الحكم ابن اخيه الامير يوسف ، حتى انتقض العاملين مجددا ضد حكم الوالي العثماني درويش باشا ( والي صيدا ) وذلك عام ١٧٧١ ، فرفضوا دفع الاموال الاميرية وطردوا عمال السوالي من ديارهم ، وأظهروا البغضاء للامير يوسف الشهابي حليف هذا الاخر ، فاقدموا على مهاجمة بلدة مرجعيون وقرى الحولة وهي ، في ذلك الحين ، من أعمال خاله الامير اسماعيل أمير وادي التيم ، فجهز الامير يوسف لقتالهم جيشا قدر بعشرين الف مقاتل من مشاة وخيالة ، وأرسل الى خاله ليلاقية بمن عنده من المقاتلين ، ثم نهض من عاصمته دير القمر باتجاه صيدا حيث عسكر عند جسر الاولي ، فبات ليلته هناك ، وانطلق في اليوم التالي الى « جباع الحلاوي » حيث تحشد ال منكر وانصارهم من ال الصغير وال صعب ، فلما عرف هؤلاء بضخامة الجيش الذي جاء به الامير لقتالهم ، تفرقوا ورحلوا عن البلاد دون قتال ، بينما وصل الامير الى « جباع » فأحرقها كما أحرق جميع قرى اقليم التفاح .

واتصل العاملين بالشيخ ظاهر العمر ، حليفهم ، يطلبون منه العون والنجدة ، وكانوا قد ناصروه مناصرة فعالة في معركة سبق وجرت ، في اب من العام نفسه ١٧٧١ ، ضد عثمان باشا الصادق



والي دمشق ، عند بحيرة الحولة ، انتهت بهزيمة الوالي وسحق جيشه ، وانتصار الشيخ ظاهر وحلفائه العاملين ، فكتب بدوره الى الامير اسماعيل أمير وادي التيم يتوسطه لكي ينصح ابن اخته الامير يوسف باحلال الصلح بينه وبين العاملين ، وأرسل الامير اسماعيل كتاب الشيخ ظاهر الى الامير يوسف وطلب منه باسمه الشخصي ، أن يتوقف عن مطاردة العاملين وارهاقهم تجاوبا مع وساطة الشيخ ظاهر ، ولكن الامير يوسف رفض قبول الوساطة ، كما أنه لم ينتظر وصول خاله الامير اسماعيل الذي طلب منه البقاء في مركزه دون قتال حتى وصوله ، فانطلق بجيشه الى كفر رمان فأحرقها ، ثم الى النبطية ( تشرين الاول ١٧٧١ ) حيث كان العاملون قد استقروا بعد أن جمعوا فلول مقاتليهم فبلغت نحو أربعة الاف مقاتل ، وانضم اليهم حليفهم الشيخ ظاهر العمر الذي أغاظه عدم قبول الامير يوسف لوساطته ، وعزم الجميع على ملاقاته المهاجمين ، وما أن وصلت طلائع جيش الامير يوسف الى النبطية حتى بادرها العاملون ورجال الشيخ ظاهر بالقتال ، ويرى بعض المؤرخين أن الشيخ علي جنبلاط ، الذي كان في صفوف الامير مع رجاله ، كان ميالا للتفاهم مع العاملين ومصالحتهم ، فلم ترقه هذه الحرب ، وانكفأ برجاله ، مما أدى الى تضعف صفوف الجيش الشهابي ثم هزيمته ، وانقض العاملون مع حلفائهم ساعتئذ على الجيش المنهزم فأوقعوا في صفوفه ، حسب بعض المؤرخين ، نحو ألف وخمسمائة قتيل ، ولم ينقذ جيش الامير يوسف الا وصول خاله الامير اسماعيل بجيشه ، ولكن الامير يوسف ظل يتقهقر بجيشه حتى دخل امارته ، وخاف درويش باشا والي صيدا من لقاء العاملين وحلفائهم ففر من المدينة ، وقاد الشيخ ظاهر العمر الهجوم باتجاه الشمال ، وكان ذلك طموحا قديما لديه ، فدخل صيدا فاتحا حيث مكث فيها مدة ، ثم عين عليها متسلما من قبله هو أحمد اغا الدنكرلي ، وغادرها الى فلسطين . وحكم العاملون صيدا في هذه الفترة ، وأقاموا فيها يتحرشون بامارة الامير يوسف ، واستقرت العداوة بين الامير يوسف وحلفائه

العثمانيين من جهة ، والشيخ ظاهر وحلفائه العاملين من جهة أخرى ، ولم يكن ممكنا أن تسمح السلطنة للشيخ ظاهر وحلفائه بهذا الانتصار ، فأرسل عثمان باشا والي دمشق يطلب من الامير يوسف تجهيز جيش لمقاتلتهم ، وكتب الى خليل باشا والي القدس ومعه الجزار أن يرافقه في هذه الحملة ، وأمدهما بكل ما يلزمهما من معدات القتال ، فتجمع للامير يوسف نحو عشرين الف مقاتل ضربوا حصارا حول صيدا مدة اسبوع كامل كاد الدنكرلي في نهايته أن يسلم المدينة ، لولا أن الشيخ ظاهر أوفد سفنا مسكوبية حربية ( استأجرها لهذا الغرض ) فاطلقت مدافعها على الجيش المحاصر ، مما اضطره الى فك الحصار عن المدينة .

ورغم ذلك ، فقد حاول الشيخ ظاهر أن يتحاشى استئناف القتال ، فأرسل الى الامير يوسف يطلب منه أن يرجع بعسكره الى جسر الاولي شمالي صيدا ، الا أن الامير أبى ذلك ، فزحف الشيخ ظاهر وحلفاؤه المصريون والعاملون تجاه صيدا لاحتلالها ، والتقى الجيشان في سهل « الغازية » جنوبي شرقي صيدا ( في حزيران ١٧٧٢ ) ، حيث جرت بينهما معركة انتهت بهزيمة الامير يوسف وحليفه خليل باشا والي القدس ، وطارد الشيخ ظاهر وحلفاؤه فلول جيش الامير يوسف حتى وصلت حدود الإمارة ، بينما فر خليل باشا بمن معه الى دمشق بعد أن خسر نحو خمسمائة رجل ، أما خسارة الشيخ ظاهر فكانت نحو ألف رجل . ولم يكتف الشيخ ظاهر بهذه الهزيمة ، بل أرسل السفن المسكوبية لحصار مدينة بيروت بحرا — وكانت محمية شهابية — فدمرت بمدافعها بعض أبراج المدينة ، ثم نزل عسكر هذه السفن اليها فنهبوها وعادوا الى سفنهم ، وظل حصار السفن المسكوبية لبيروت قائما الى أن دفع أمراؤها مبلغا من المال قبضه قائد الاسطول وعاد قافلا الى عكا .

واستمر التحالف بين العاملين بقيادة الشيخ ناصيف النصار وبين المصريين بقيادة علي بك والصفيديين بقيادة الشيخ ظاهر العمر ، قويا



ومتينا . حتى عام ١٧٧٤ ، حيث دب الخلاف بين محمد بك أبو الذهب الذي خلف علي بك في حكم مصر بعد وفاته ، وبين الشيخ ظاهر ، فأشهر أبو الذهب الحرب على حليفه الشيخ ظاهر ، وهاجم بلاده بستين ألف مقاتل ، مما اضطر الشيخ ظاهر الى الفرار بينما احتل أبو الذهب عكا وصفد وصور وصيدا ، الا انه لم يستمر في حكم هذه البلاد سوى أيام معدودات ، اذ توفي فجأة فانسحبت الجيوش المصرية وعاد الشيخ ظاهر الى عكا ، ولكنه اغتيل عام ١٧٧٦ على يد أحد رجاله من اتباع الدنكلي ، وتسلم أحمد باشا الجزائر ولاية عكا ، فكان أول همه اخضاع جبل عامل لسلطته ، وزحف اليه بجيش لجب عام ١٧٨١ ، وتصدى له ناصيف النصر مع حلفائه من مشايخ هذا الجبل ، ودارت بين الفريقين معركة ضارية هي معركة ( يارون ) التي انتهت بانتصار الجزائر ومقتل النصر مع عدد يراوح بين ٣٠٠ و ٤٠٠ من فرسانه ومقتل عدد من المشايخ العاملين . ويتحدث أرازي Arazy

قنصل فرنسا العام في صيدا عن هذه المعركة ، في رسالة منه الى الكونت دي فيرجين C. De vergennes وزير الدولة ، بتاريخ ٢ تشرين الاول ١٧٨١ فيقول : « ان موت الشيخ ناصيف ونحو ٣٠٠ أو ٤٠٠ من فرسانه مع عدد من المشايخ ، وضع ، بضربة واحدة ، حدا لهذه الحرب ، وذلك بتشتيت باقي المشايخ الذين وقع اثنان منهم في قبضة الباشا » Ismail , Documents , T2 p. 385

وبمقتل الشيخ ناصيف خضع جبل عامل لحكم الجزائر طيلة ربع قرن حتى وفاة هذا الاخير عام ١٨٠٤ .

منذ أن تولى أحمد باشا الجزائر حكم ولاية عكا ( بما فيها جبل عامل وصيدا ) لم يعد للشهابيين يد في هذه الولاية ، وهكذا ، فقد انتقضت ولاية الأمير يوسف ( عام ١٧٩٠ ) ، والعقد الاول من ولاية الأمير بشير الثاني الكبير حتى وفاة الجزائر ( ١٨٠٤ ) ، دون أن يكون لهؤلاء الامراء في جبل عامل اي تأثير ، ولكن العاملين ، الذين تعودوا التمرد والثورة على كل حكم اجنبي ، وانسوا في حياتهم شيئا من الحرية

والاستقلال الذاتي ، لم يستكينوا لحكم الجزار الذي تميز بالغلظة والقسوة ، فحكم البلاد بالحديد والنار ، وقضى على قسم كبير من زعمائهم وشرذ القسم الاخر الى عكار وحلب والاناضول ، وهاجر العلماء والمثقفون الى البلاد الاسلامية النائية كالهند والعراق وايران وأفغان خوفا من بطش الجزار وظلمه ، فأصبح تاريخ احتلال الجزار لجبل عامل نهاية فترة من الحكم الذاتي تمتع به الجبل طويلا ، ولكن البلاد عرفت في عهد الجزار عددا من الانتفاضات كتلك التي قام بها الشيخ حمزه بن محمد النصر من ال الصغير والشيخ علي الزين صاحب شحور ، اللذان شكلا فرقة من الثوار أخذت تهاجم المراكز الحكومية العائدة للجزار ، فهاجمت تبين و قتلت الحاكم العام فيها وأصابت بعض أعوانه ، الا أن انتقام الجزار كان شديدا ، اذ فاجأ المتمردين في بلدة شحور بفرقة من جنده فقضى على زعيمهم الشيخ حمزه وفر الشيخ علي الى ايران وتشتت شمل المتمردين جميعا .

يستدل من ذلك ان هذه الانتفاضات في عهد الجزار لم تكن منظمة ولم يقبض لها زعيم كناصيف النصر يوجهها التوجيه الصحيح ، فغالبا ما كانت خالية من أي توجيه ثوروي أو أية غاية سياسية محددة ، كما كانت لا تتورع عن ايقاع الضرر بالاهالي أو برجال الجزار لا فرق ، يحدثنا الشيخ علي سببتي في مجموعته عن هذا الموضوع فيقول : « كان دور العصابات والفدائيين أتعس دور مر على جبل عامل ، وقع فيها ، بين نارين ، نار زبانية الجزار ونار رجال الثورة ، فالزبانية التي كان يقذفها الطاغية تعيث في البلاد فسادا ، وتضيق الخناق على الاهلين المساكين وتؤلف منهم فرقا لمطاردة العصابات فلا تظفر بهم ، والثوار يشنون الغارات للسلب والنهب وحرق القرى وتدمير البيوت متفلفلين في بطون الاودية بين الاحراج والغابات معتمدين برؤوس الجبال » .

ولكن الكابوس الخائق ، الذي كانت شخصية الجزار المعروفة بالبطش والظلم والارهاب قد فرضته على اهل جبل عامل طيلة



حياته ، ارتفع بعد مماته عام ١٨٠٤ ، ورغم ان واليا جديدا عين على عكا هو سليمان باشا ، الا ان حرب العصابات في جبل عامل قد اتسعت وعمت ، وشملت سلطة الثوار عكا وصفد ، فصاروا يفرضون الضرائب والرسوم على البلاد ويعاقبون المتمردين على اوامرهم ، وقد قيص للعاملين ، في هذه الفترة ، زعيم قوي وقادر وذو نفوذ ، كآبيه ، هو فارس بن نصايف النصر ، الذي قاد الثورة ضد الوالي الجديد ، وكان هذا « سلس القيادة لىن العريكة » بعكس الجزار سلفه ، فقرر أن وسيلة التودد واللين مع ثوار بني عاملة اجدى من البطش والارهاب ، فتوسط لديهم الامر بشير الثاني امير الشهابيين ( ١٧٩٠ - ١٨٤٠ ) وكان هذا سياسيا قديرا ومحكما ، استطاع بدهائه وقدرته السياسية ، التوصل مع الثوار العاملين الى شروط للصالح تنهي الثورة ، وقد وقع على هذه الشروط في بيت الدين ، كل من جرجس باز معتمد الامر وحسن الشيت معتمد الشيخ فارس النصر ، وهي تلخص بما يلي :

١ - العفو العام عن جميع الثائرين .

٢ - اعادة اقليم الشومر الى جبل عامل ، وكان قد سلخ عنه بعد معركة يارون عام ١٧٨١ .

٣ - ان لا يكون لموظفي الدولة سلطة على الجبل ، وان يرجع اهلهم في حل خلافاتهم الى عميدهم الشيخ فارس ( النصر ) الذي يمثلهم تجاه الحكومة وبه تحصر الاتصالات وعليه تعود المسؤولية ( تاريخ جبل عامل ، لمحمد جابر ال صفا ، ص ١٤١ ) .

وقد وافق والي عكا سليمان باشا وراغب افندي معتمد الباب العالي على هذه الاتفاقية ، فكانت موافقتها اعترافا صريحا بنوع من الحكم الذاتي لجبل عامل ، وهو الامر الذي حرم منه هذا الجبل طيلة حكم الجزار ، وقد اتخذ الشيخ فارس بلدة ( الزرارية ) مقرا

له حيث بنى فيها دارا للرئاسة على نفقة الدولة .

وظلت هذه المعاهدة قائمة حتى ولاية عبد الله باشا الذي خلف سليمان باشا في عكا ، وفي عام ١٨٢١ عقد عبد الله باشا مع مشايخ جبل عامل اتفاقا جديدا اعاد اليهم بموجبه حكم بلادهم كما كان في السابق ، وكان العاملون اوفياء للوالي المذكور ، فحاضوا معه القتال ضد درويش باشا والي الشام في معركة المزه وجسر بنات يعقوب ، وظل الاتفاق قائما بين عبد الله باشا وجبل عامل حتى عام ١٨٣٢ ، العام الذي احتل فيه ابراهيم باشا المصري بلاد الشام ، فدخل جبل عامل في الحكم المصري الذي الحقه بالامارة الشهابية وكان قد تولاه الامر بشير الثاني منذ عام ١٧٩٠ ، فكان الحاقه بهذه الامارة احد اهم اسباب اشتراك العاملين بالثورة التي قامت فيما بعد في بلاد الشام على المصريين والشهابيين معا ، وذلك للنزاع البعيد الجذور الذي كان قائما بين العاملين والشهابيين وقد سبق وراينا منه امثلة عديدة .

ثار العاملون على المصريين وحلفائهم الشهابيين ، فكان ذلك اول مرة في تاريخهم يتحالفون فيها مع العثمانيين ، الذين طالما حارب العاملين ولاتهم وثاروا عليهم ، وولى الامر بشير ابنه الامير مجيدا حكم جبل عامل فبطش هذا بالعاملين وكنل بهم ، وسجن رجالهم وحقر علماءهم ، واتخذ سياسة العنف والشدّة سبيلا لمعاملتهم بدلا من اللين والمسايرة ، فقاد ثورة العاملين عليه واحد من زعمائهم هو الشيخ حسين بن شبيب بن علي الفارس من ال صعب واخوه محمد علي ، وقد استمرت ثورة الصعبيين هذه ضد الشهابيين وحلفائهم المصريين ثلاث سنوات ( ١٨٣٦ - ١٨٣٩ ) كانوا في خلالها يهاجمون مراكز الحكومة ويطردون عمالها ، ولم يتمكن الامر مجيد الشهابي من اخماد هذه الثورة ، فأخذ ينكل بأهالي الثوار واقربائهم وذويهم ، مما اضطر عددا من وجهاء الجبل وزعمائه الى التدخل لوضع حد لثورة الصعبيين بشرط الحفاظ على كرامة زعيمها وحياتها ،



الا انها أبيا ذلك وفضلا مفادرة البلاد الى حوران وضواحي دمشق، ولكن مرضا لم بأحدهما الشيخ حسين فظل في منزله بقرية (ياطر) حيث قبض عليه واقتيد الى المشنقة مع واحد من اتباعه ، أما أخوه محمد علي فقد فر الى خارج البلاد ولم يعد طيلة حياته .

ولكن لم تكن تلك نهاية الثورة ضد الحكم المصري والشهابي في جبل عامل ، فقد حمل لواءها من جديد وفي عام ١٨٤٠ واحد من أشهر زعماء ال الصغير بعد ناصيف النصر ، هو حمد البك المحمود ، الذي أعلن الثورة في وقت كانت الدول الكبرى قد اتفقت فيها بينها على انتزاع بلاد الشام من محمد علي واعادتها الى حكم السلطنة، وتحركت الجيوش العثمانية برا تساندها الاساطيل الانكليزية بحرا، لتنفيذ هذا الاتفاق ، ووصلت طلائع هذه الجيوش الى حلب ، عندها انطلق حمد البك بثورته من جبل عامل ، فقاتل الامير مجيدا الشهابي حليف المصريين عند (( جسر القعقاعية ) وكان هذا الامير مكلفا مهمة اخضاع جبل عامل من قبل أبيه ، فهزمه حمد البك وتابع سيره مع فرقته شمالا حتى وصل بها الى حمص ، حيث اتصل بالجيش العثماني المربط هناك ، فانضم اليه واشترك معه في محاربة المصريين ، مظهرا من البطولة ما أكسبه ثناء القائد العثماني عزت باشا واعجابه ، فعينه حاكما لجبل عامل ومنحه لقب شيخ مشايخ بلاد بشارة ، وعهد اليه بمطاردة الجيش المصري في الجنوب ، فعاد حمد البك ليقااتل فلول هذا الجيش المنهزم في رميش ووادي الجش وشفا عمرو حيث طردهم منها ، واستولى على صفد وطبريا والناصره وأجلى المصريين عنها ، وما أن استقر الحكم العثماني في جبل عامل من جديد حتى ثبت حمد البك في منصبه كحاكم عام على هذا الجبل ، وظل كذلك حتى وفاته عام ١٨٥٢ ، حيث خلفه في الحكم رجل يدعى علي بك الاسعد الذي توفي عام ١٨٦٥ ، فكان اخر الحكام الاقطاعيين الذين تولوا حكم جبل عامل في هذه الفترة ، اذ حكمت الدولة العثمانية ، بعد هذا التاريخ، بلاد عاملة حكما مباشرا، فانتهت بذلك حياة جبل عامل السياسية ، وزال الحكم الاقطاعي المحلي من البلاد .

يذكر الدكتور عادل اسماعيل في كتابه ( السياسة الدولية في الشرق العربي ، ج ٢ : ٦٠ ) ان محمد علي باشا حاكم مصر كان ينادي بتحرر الشعوب العربية « التي تكون مصدر قوة السلطان بالمال والرجال وتعيش في الامبراطورية العثمانية حياة التابع البائس المستضعف » وان أحد مرافقي ابنه القائد ابراهيم باشا سأل هذا القائد يوما ، وفي اثناء حصاره لمكا ، الى اي مدى ستصل فتوحاته؟ فأجاب : « الى حدود البلاد التي لا يتكلم فيها الناس ولا يتفاهمون باللسان العربي » .

ويقدم الاستاذ جوزف حجار في كتابه « أوروبا ومصر الشرق العربي ص ٨٤ - ٩٩ » شواهد وأدلة عديدة تدل على ان محمد علي باشا كان يطمح لتأسيس « امبراطورية عربية » فتينة على امتداد البلاد الناطقة بالعربية ، بدلا من الامبراطورية العثمانية الهرمة . ان من يطلع على خفايا المسألة الشرقية في هذه الفترة من تاريخها ، وعلى الادوار الرهيبة التي قامت بها الدول الكبرى الخمس وخاصة وزراء خارجيتها في عواصمهم ، وسفراؤها في عاصمة السلطنة ، وقناصلها في كل من بيروت والاسكندرية ، وعلى الجهد المضني الذي بذلوه ، والموقف الصلب الذي وقفوه في وجه طموح محمد علي ، فمنعوا عنه أي انتصار يمكن ان يصل به الى حد تأسيس امبراطورية عربية ، أو الى حد الطموح الى السلطنة ، حتى أنهم وقفوا حائلا بينه وبين أي نوع من التفاهم مع الباب العالي ، ير حرص هذه الدول ، وهي غير حسنة النية ولا شك ، على أن تظل الامبراطورية العثمانية ، قائمة بهيكلها المتداعي وكيانها المشرف على الانهيار، لا رغبة في مساعدتها وحبا بالابقاء عليها، وانما لابعاد شبح قيام امبراطورية مماثلة ولكن بدم جديد أكثر حرارة وذات وشائج أكثر متانة ، ولكي يتم ، في الوقت المناسب ، تقويض أركانها ، بقصد اقتسام الرجل المريض وتوزيع تركته فيما بينها ، فتتال كل دولة حصتها من الغنيمة ، تماما كما حصل بعد الحرب العالمية الأولى .

★★★



## ثانياً - الشخصية العاملة

### في عهد الامارتين : الوجه العسكري

كان بودي ، في بحثي هذا ، أن أتحدث عن الشخصية العاملة في عهد الامارتين بوجهيها الاجتماعي والفكري ، وهما وجهان مشرقان ، وغنيان بالتقاليد العريقة والاثار الفكرية المتطورة ، لولا أن ضيق المجال لا يسمح بذلك ، فالتحدث عن الشخصية العاملة بجميع جوانبها يتطلب ولا شك بحثاً مستقلاً ، بالإضافة الى انه ربما كان لغيري ممن هم أكثر مني جدارة واختصاصاً ، في المجالين الاجتماعي والفكري ، أن يقوموا بهذا العمل ، لذا رأيت أن اختتم هذا البحث بنظرة في الوجه العسكري ، دون سواه ، من الشخصية العاملة .

لم تكن القوى المسلحة في جبل عامل مختلفة عن غيرها من القوى المثلة في الامارات والمقاطعات في بلاد الشام ، والتي كانت تشكل وفقاً لنظام الإقطاع الذي كان سائداً في ذلك الحين ، إلا انه لم يتوفر لدى مؤرخي هذه الفترة من تاريخ جبل عامل ، في المجال العسكري ، ولا أسباب عديدة لا مجال لذكرها هنا ، معلومات تجعل الباحثين يحددون ، بوضوح وبالتفصيل ، تنظيم هذه القوى وعديدها ومستواها ، وأن تجمع لديهم معلومات وافرة عن المعارك التي خاضها هذا الجبل في العهدين المعني والشهابي .

ويحدثنا بعض المؤرخين العاملين أن الأمر الإقطاعية التي كانت تحكم جبل عامل في عهد الامارتين كانت تلتزم ، مبدئياً ، بما يلتزمه رجال الإقطاع تجاه السلطة المركزية من . . « تأمين الطرق وحفظ الأمن داخل المقاطعة » وأن يلبي الإقطاعي ، « برجاله وفرسان مقاطعته ، دعوة والي الايالة عند وقوع حرب أهلية أو دولية ، ويشترك في أية معركة يوجه اليها » ، ولا غرو فقد كان الشعب

العالمي ، كما يصفه أحد مؤرخيه « شعباً حربياً بأسلاً يهزأ بالمنايا ، ويرى الموت حياة خالدة تحت شفار السيوف » . .

وقد اتقن العاملون بعض فنون الحرب ومارسوها ممارسة عملية ، يصف لنا المؤرخ ال صفا هذا الشعب بقوله « وانصرف الشعب العالمي كله في ذاك العهد - والحديث عن العهد العثماني - لممارسة فنون الحرب واحكام خطتي الدفاع والهجوم ، وكانوا لا هم لهم في فترات السلم الا شحذ السيوف وتسديد الرمي والكر على ظهور الخيل يعلمونها أولادهم منذ الصغر » وأما نظام الدفاع عن البلاد « فقد كان على درجة من الرقي تدهش الباحثين » ومن فنون القتال التي اتقنها العاملون : الرمي بالبندق ، وضرب الرماح ، وسرعة الالتام والتعبئة عند اعلان النفير ، والكر في الهجوم ، واليقظة والحذر في الدفاع ، وتحصين القلاع والحصون وشحنها بالسلاح والمقاتلين واجادة القتال فيها .

وكان لكل مقاطعة من مقاطعات جبل عامل راية خاصة يلتزم المقاتلون حولها ، إلا أن الاتحاد بين هذه المقاطعات كان تاماً ومتيناً ، وخاصة في زمن الحرب وأوقات الخطر ، فإذا هوجمت احداها « هبت المقاطعات كلها هبة واحدة ، واتحدت كلمتهم على صد المعتدي بقوة السلاح » وكانت راياتهم من نسيج حريري أخضر وأحمر ، وقد طرز عليها ، بالنسيج الأبيض ، آيات قرآنية وعبارات دينية مثل : « نصر من الله وفتح قريب » أو « لا اله الا الله محمد رسول الله » أو « لا فتى الا علي ولا سيف الا ذو الفقار » ، وكانت راياتهم تتقدم جيوشهم في أثناء القتال .

وكان اطلاق النار هو الإشارة الرسمية للتعبة عندهم « فإذا سمعوا طلقة نارياً في احدى قراهم أجابوا باطلاق الرصاص طلباً للنجدة ، وتتبعهم في ذلك القرى المتصلة حتى يمتد الصوت على ما قيل من جباع في سفح لبنان الى البصة على حدود عكا » .



أما أسلحة المقاتلين فكانت في معظمها البنادق والسيوف والخناجر والرماح ، وكانوا يقاتلون مشاة وفرسانا ، وكانوا يتحصنون في القلاع مستخدمين النار المحرقة وبعض أنواع المدافع والبنادق ، وأما عدد المقاتلين في جبل عامل في ذلك الحين فلم نعرف له رقما محددا ، وإن كنا نعلم أن هذا العدد قد بلغ في عهد التحالف العالمي مع الشيخ ظاهر العمر ، أي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ميلادية ، نحو عشرة آلاف مقاتل .

وقد عرف العامليون صنع الذخائر ، كالبارود الذي اشتهرت بصنعه قرية « بيت ليف » العالمية .

وكان جبل عامل ، منذ القدم ، منطقة حصينة ومنيعه ، أنشئت فيها قلاع وحصون عديدة تعدها العامليون باستمرار ، وإن لم يكونوا قد بنوها بأنفسهم ، ولا بد من سرد أسماء أهم هذه القلاع لظهور مدى أهمية هذا الجبل من الوجهة العسكرية لدى جميع الفاتحين ، نذكر : قلعة الشقيف الشهيرة أو شقيف أرنون ، وقلعة أبي الحسن ، وقلعة هونين ، وقلعة شمع ( بناها ال صغير عام ١١٦٣ هـ ) وقلعة دوبيه ، وقلعة تبنين .

يذكر ، في هذا المجال البارون دي توت Baron de Tott في مذكراته التي نشرها عام ١٧٨٤ بعنوان: «مذكرات عن الاتراك والتتار Mémoires sur les Turcs et les Tartares عن جبل عامل ما تعريبه : « ان القلاع التي يسكنونها — أي العامليون — تجعلهم أكثر تحفزا للثورة ، وتجعل اخضاعهم أكثر صعوبة. كل جبل عندهم حصن ، وكل مالك اقطاعي كبير . . وقد اتفقوا على أن يدفعوا الضريبة السنوية للدولة ، وقدرها مايتا كيس ، ليتصرفوا بجبالهم وفي ظل زعمائهم » . ( Tott , Memoires , T4p . 122 — 123 ) وكان العامليون يخضعون ، في مجال التجنيد والتعبئة ، الى النظم الاقطاعية السائدة في ذلك الحين ، ولكن لم يعرف عنهم انهم

استخدموا جنودا من المرتزقة كالكمان وسواهم . .

ومن العودة الى تقارير القناصل الفرنسيين في صيدا ، في هذه الحقبة من الزمن ، يمكننا أن نستنتج بعض المعلومات الهامة والمنيدة عن الوضع العسكري للعاملين في عهد الاقطاع ، فقد وصف قنصل فرنسا في صيدا عام ١٧٧٢ شيفالييه دي تولى Chevalier de Taulés في رسالة منه الى الدوق ديفويون Duc D'Aiguillon وزير الدولة الفرنسية ، بتاريخ ٣٠ نيسان ١٧٧٢ ، المقاتل العالمي بأنه « لم يكن معتادا أبدا على البقاء طويلا في ساحة القتال او على خوض الحرب بعيدا عن موطنه » وذلك في مجال الحديث عن حصار علي بك المصري والشيخ ظاهر العمر ليافا في العام نفسه ، اذ ترك معظم العاملين — كما يقول القنصل في الرسالة نفسها — ساحة القتال وعادوا الى قراهم . ليشيعوا أن « يافا حصن لا يؤخذ » .

( Ismail , Documents , T2 , p 205 )

ولكن ذلك لا ينفي ما قدمه العامليون من معونة عسكرية للشيخ ظاهر وحلفائه المصريين في أثناء تحالفهم معهم ، اذ يذكر هذا القنصل ، في مذكرة بعث بها الى حكومته بتاريخ أول أيار عام ١٧٧٢ ، أنه ، في أثناء مهاجمة الأمير يوسف الشهابي وحلفائه العثمانيين لصيدا ، في العام نفسه ، بقصد تخليصها من يدي ظاهر العمر وحليفه علي بك المصري ، كان العامليون على أهبة الاستعداد لأن يقدموا ، لمساعدة حلفائهم الصفديين والمصريين ، جيشا يراوح عدده بين ٣ و ٤ آلاف مقاتل ( Documents T2 p 210 ) وقد بقي هذا الجيش في بقعة التجمع وعلى مقربة من ساحة القتال بناء لاوامر الشيخ ظاهر .

كما ان الشيخ ناصيف النصار قد اشترك مع قواته الى جانب الشيخ ظاهر في حصار نابلس في العام نفسه (مذكرة من القنصل نفسه بتاريخ ٢ أيار ١٧٧٢ ) ( Documents T2 P 212 )

ويقدم القنصل نفسه ، في رسالة أخرى منه الى الدوق ديفويون بتاريخ ٢ حزيران ١٧٧٢ ، شهادة جيدة بحق العاملين منوها بشجاعتهم فيقول : « يستطيع المتأولة أن يقدموا ما بين ٥ أو ٦



الاف مقاتل ، وقد تلقوا الاوامر في جميع قراهم بأن يكونوا على أهبة الاستعداد للسير نحو العدو . انهم شجعان ، وانتصاراتهم الاولى ، بالإضافة الى القيادة التي تعودوها منذ عام — وفي هذا إشارة واضحة لقيادة الشيخ ناصيف — أعطتهم ثقة بالنفس هي بالتالي قيمة الشجاعة « الا أنه يعود فيقول : « انهم ليسوا سوى فلاحين مسلحين لا يستطيعون ترك أرضهم طويلا » .  
( Documents , T2 , p 225 )

ويتحدث ، في مذكرة بعث بها الى حكومته بتاريخ ٢٧ حزيران ١٧٧٢ ، عن العاملين وجيشهم فيقول : « يستطيع كل شيخ من مشايخ بني عاملة أن يعد تحت السلاح من ٢٥٠ الى ٨٠٠ مقاتل ، وهؤلاء المشايخ ، مجتمعين ، يمكنهم أن يعدوا جيشا من ٢٥٠٠ خيال و ٣٥٠٠ راجل » ( Documents , T2 , p 253 — 245 ) . كما أن تبايتبوت ( Taitbout ) تنصل فرنسا بصيدا ، في معرض اجابته على بعض الاسئلة المتعلقة بأوضاع الطوائف في هذه البلاد ، عام ١٨٠٦ ، وصف العاملين بانهم « جنود جيّدون » « Des bons soldats » ( Documents , T 3 , p. 52 )

ويحاول المؤرخ ال صفا أن يحل في كتابه ( تاريخ جبل عامل ) الشخصية العسكرية العاملة ، ورغم أنه يقع ، كثيرا من الاحيان ، في المبالغة ، الا انه يظل يقدم ، فيما كتب ، للقارئ وللمؤرخ فائدة تذكر ، فالعاملي حسب رأيه « من أسرع الشعوب لحمل السلاح » يعتني الى حد كبير بأساليب القتال فيتقنها ، ويولي قلاعه عناية فائقة بقصد اعدادها للدفاع غير مهاوي حصنها ويشحنها بالاسلحة والمقاتلين ، ويظل على مستوى مرموق من التنظيم ، وفي حال دائمة من اليقظة والحذر ، فهو مستعد دوما « لخوض غمار المنايا والمبادرة للنجدة وحمل السلاح » لدى سماعه أول طلق ناري أو لدى أية إشارة من زعمائه وقادته . وإذا كان ال صفا قد تفرد بهذا التحليل للشخصية العسكرية العاملة ، فقد وافقه عليه ، الى حد كبير ، الشيخ أحمد رضا ، الذي ذكر ، في مجال الحديث عن تضامن العاملين في الحرب ، أن راعيا

أطلق عيارا ناريا لصد وحش ليلا فتجاوبت جميع القرى المتصلة باطلاق النار ، اعتقادا منها أن عدوا يهاجم القرية « وما انجلى عمود الصبح حتى كانت الالوف ترد وتحتشد . والفرسان مهيأة للطعان . »

وبعيدا عن الاسلوب العاطفي والادبي الذي تحدث به هذان المؤرخان عن الشخصية العسكرية العاملة ، نستطيع القول ، في نهاية حديثنا هذا ، ان العاملي ثائر بطبيعته ، مقاتل بفطرته . الا أنه كان يفتقر دائما ، الى الفن العسكري المنظم ، فظل ، بسبب ذلك . يعتمد على شجاعته وبسالته أكثر من اعتماده على اسلوب قتالي تكتيكي محدد . اللهم سوى اسلوب « الكر والفر » الذي كان سائدا في بلادنا حينذاك ، باستثناء ما كان يأتي « بداهة » و « دون أدنى حساب » باعتبار أن التكتيك العسكري هو « فن القتال . أو فن ادارة المعركة بشكل يضمن للقائد احرار النصر » .



## مصادر البحث

- أخبار الأعيان في جبل عامل لطنوس الشدياق ، منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٧٠
- أوروبا ومصر الشرق العربي لجوزف حجار ، المؤسسة العربية ١٩٧٦
- تاريخ جبل عامل لحمد جابر ال صفا ، دار متن اللغة — بيروت
- البلاد العربية والدولة العثمانية لساطع الحصري ، دار العلم للملايين ١٩٦٥
- للبحث عن تاريخنا في لبنان لعلي الزين ، طبعة أولى ١٩٧٣
- صيدا عبر حقب التاريخ لنير خوري ، المكتب التجاري، ١٩٦٦
- جبل عامل في التاريخ لحمد تقى ال فقيه ، الطبعة العلمية ١٩٤٦
- خطط جبل عامل لحسن الامين ، طبعة ١ — ١٩٦١
- السياسة الدولية في الشرق العربي لعادل اسماعيل ، دار النشر للسياسة والتاريخ ١٩٦٠
- الفرر الحسان في تاريخ حوادث الزمان لحيدر أحمد الشهابي. مصر ١٩٠٠
- خطط الشام لحمد كرد علي ، مطبعة المترقي دمشق ١٩٢٧
- تاريخ الامراء الشهابيين بقلم احد امرائهم من وادي التيم تحقيق سليم هشي ، المديرية العامة للآثار — بيروت ١٩٧١
- تاريخ لبنان العام ليوسف مزهر — بيروت .
- مجلة العرفان لاحمد عارف الزين ( اعداد متفرقة )
- اوراق لبنانية ليوسف ابراهيم يزبك . حزيران ١٩٥٦
- Les Forces armées dans les Muqata'as libanais - thèse pour le Doctorat de 3e Cycle. présentée par le Col. Y. Souèd Lyon ( France 1977 Bibliothèque de L'AUB Université Libanaise c U.A.B )
- Documents diplomatiques et Consulaires , T1 et . 2. Adel Ismail
- Mémoires sur les turcs et les tartares, Baron de Tott.

## الكيان السياسي لجبل عامل قبل ١٩٢٠

بقلم : د. منذر جابر

مشكورة خطوة المجلس الثقافي للبنان الجنوبي ، فهي تتعدى تقليب صفحات من تاريخ جبل عامل الى ما هو أبعد من ذلك : اعني فتح ملف هذا التاريخ وهو تاريخ مضيع منسي مرات عدة :

— مضيع أولا على يد المؤرخين اللبنانيين ، فجبل عامل عندهم خالة لهذا الوطن وليس اما ، فلا يذكر في كل مراحل التعليم في لبنان ، مدرسة وجامعة ، الا مرة واحدة عندما أقطع أمير جبل لبنان آل علي الصغير بلاد بشارة بعد معركة عين داره .

والمؤرخون اللبنانيون يؤكدون دائما على خصوصية المؤسسات الاجتماعية والسياسية اللبنانية ، خصوصية كانت وعلى طول الحقب التاريخية « لبنانية صافية » ، ولكي تحافظ هذه المؤسسات على قدسيتها ولبنانيتها وطهارتها كان لا بد من تغييب التاريخ الخاص بكل منطقة ، وبالتالي بكل طائفة ، فتخبو والحالة هذه جميع نيران الصراع الكامن والمتفجر حيناً ، ويصبح جميع اللبنانيين اخوانا في عائلة « معقمة » .

— وتاريخ جبل عامل مضيع ثانيا على يد المؤرخين العاملين أنفسهم فالادبيات العاملة التاريخية ، مجموعات موميائية لذكر الوقائع التي تقوم على المصادفة وعلى تراكم الاحداث ، والتي تتفق مع هدف معين ، وسردها يخلو من عمل التحليل والتعليل والاستنتاج ، بالإضافة طبعا الى أن كل الكتابات العاملة التاريخية



تنطلق أساسا من مجموعة أساطير ، هي الآن ثوابت ومسلمات تاريخية تعلق عن النقاش : اسطورة الاصل الواحد ( بنو عاملة ) ، اسطورة التشيع على الصحابي أبي ذر الغفاري ، الاساطير التي ترويها العائلات العاملة عن ماضيها أو تختلقها لماضيها .

— وتاريخ جبل عامل مضيع ثالثا على يد العاملين أنفسهم ، فحال هذا التاريخ مع أصحابه الحقيقيين ليس بأحسن منها مع المؤرخين :

« لقد أحسست بسحر لا يتحدد وأنا استمع الى متواليين عجوزين ذوي لحى بيضاء ، يتحدثان عن مجد المتأولة السابق وعن قوة أجدادهن في سوريا ، ثم يعيون دامعة راحا يتحدثان عن ذلهم الحالي وعن مآسيهم في عهد الجزار المخيف » (١) . هذا ما يرويه رحالة زار منطقة جبل عامل في ثلاثينات القرن الماضي ، وهو ما يزال ينطبق حتى الآن ، فالتاريخ في جبل عامل ما زال ختيارا له لحيمة بيضاء يروي أخبارا متناقضة عن الماضي ، ومجموعة من الذكريات غير البعيدة في الزمن والمحفوظة في صدور أقلية من الناس تردد ما يخطر لها منه في حلقات ومجالس ضيقة ، فالتاريخ في جبل عامل ما زال تسليه مثقفين ، دينيين على الأغلب ، لا شاغلا جماعيا أو تراثا شعبيا لجماعة تجد فيه صورا لنفسها ماضيا وحاضرا ومستقبلا .

لقد خضع جبل عامل منذ عام ١٩٢٠ لتبديل قسري خض حياته وهزها ، فقد وجد نفسه آخر جزء من دولة ، مؤسسة ، لم تكن له فيها شركة من قبل ، اعتبر فيها « قاروطا » ضائعا يعتاش على ما تجود به يمين « الخالة » وأولادها الشرعيين . كما أن اقتصاده مع ظروف ما بعد ١٩٢٠ أفلس أو كاد : الزراعة توشك أن تكون عملا مجانيا لا يسد الرمق ، والحرف ضاقت دائرتها فهجرت حرفيوه ولجأوا الى مصانع المدينة ، والتجارة أمسك بخناقها بعد أن سدت في وجهها أبواب فلسطين وسوريا . باختصار أخذ جبل عامل ، جنوب لبنان ، يبدو وكأنه بلا حياة ، فليس من الحياة

الاجتماعية الا بعض سهرات يقيمها صيفا بعض سكانه الهاربين من حر المدينة ، أما في الشتاء فليس الا النسوة والمجانز ، والباقي من أهله مقيم في العاصمة متنقلا في سكناه مرات عدة بين أحياء بائسة موحلة ، يؤدي على الأغلب أكثر الاعمال شقاء وأقلها أجرا ، دون أن يعرف استقرارا في عمله أو ثباتا . وليس له من المراكز الثقافية الا ما تحفظه الذاكرة عن مدارس قديمة كانت في ميس وعيناتا والكثيرة وبنت جبيل ، وحتى لو تواجدت فيه بعض مراكز للثقافة فانها تفتقد الحوار أو حتى اللغة المشتركة ، « فالمثقف الديني والمثقف الماركسي لا يعترفان ببعضهما البعض والواحد منهما يجد حديث الآخر من غير لغته ، وشواغله من غير شواغله ، وأسئلته وأجوبته وقضاياها هي غير ما يطرح من أسئلة وأجوبة وقضايا » .

في هذا السياق ، سياق هجرة العاملين عن جبل عامل ، المثقفون بفكرهم والآخرين بوجودهم وعملهم ، فمن الطبيعي أن يضيعوا تاريخهم وثقافتهم ، وهكذا يبدو جبل عامل وكأنه بلا تاريخ أو أنه لا يحتاج تاريخا ، فالتاريخ ، التراث ، لا يمكن أن يرافق العاملين على طريق هجرتهم وتنقلهم بين عمل وعمل ، بين القرية والمدينة .

وإذا كان التاريخ بالدرجة الاولى ، « هم » المثقفين ، فان لهؤلاء أيضا شغلهم ، الشاغل والاهم هي الوظيفة ، بها يدخلون مرحلة « التاريخ » فهي مدمن بؤسهم وبؤس آبائهم ، وهؤلاء لا يعون أن لجبل عامل تاريخا الا في اللحظة التي يكفون بها عن انتاج تاريخهم الخاص ، أي في اللحظة التي تسد في وجوههم أبواب الرزق وأبواب الترقى ، بحيث يياتون لا يملكون شيئا الا ما تمليه عليهم حاجات المدينة وغايات رأسماليتها .

بعد هذه المقدمة في ضياع التاريخ العالمي ، اسمحوا لي أن استبق حديثي عن الكيان السياسي لجبل عامل قبل ١٩٢٠ وأثره في الوعي والفكر الشيعيين ، بملاحظتين منهجيتين :



١ - ان كلمة كيان هنا لا تعني انفصالا أو حاجزا اجتماعيا تاريخيا وجغرافيا بين جبل عامل وجواره ، كما توهم بعض الرحالة الأجانب حين قال ان نهر اللبستاني سمي عند مصبه بالقاسمية لانه يقسم . يفصل بين امتين متميزتين دينيا وعرقا . وانما كلمة كيان هنا يتحدد معناها بحدود التمايز والخصوصيات الجزئية الاجتماعية والسياسية ضمن التاريخ العام الموحد والجامع لكل سكان المشرق العربي .

٢ - ان البحث هنا لا يحيط بالظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لنشوء الكيان السياسي لجبل عامل ، لان البحث في هذه النقاط يتعمق سيوقع في تكرار لما سبق وتفضل به المحاضرون السابقون . فالتركيز في الحديث سيكون أساسا على كيفية انعكاس هذا الكيان في وعي وفكر الشيعة .



فخر الدين الثاني . التلميذ الأمين لمكيافيلي ، حسب تعبير لوتسكي . هو « قابلة » التواريخ الخاصة « لبلاد » المنطقة ، بطرحه مشروعا استقلاليا هو الاول من نوعه في فترة كانت الامبراطورية العثمانية تدخل ازماتها التي استولت عليها وكانت نذيرا بالتدهور الذي أخذ من القرن الثامن عشر يظهر بشكل واضح جلي . وقبل الامير المعني يصعب تلمس موقع واضح القسمات والملاح لجبل عامل في تاريخ المنطقة اجمالا ، رغم جهد بعض المؤرخين الشيعة في رصد تاريخ خاص للجبل منذ تواجد قبيلة عاملة الاول مروورا بكل العهود التي عرفت المنطقة حتى الان ، وهو تاريخ يبدو على يد أصحابه اسلاميا حينا ، عربيا حينا آخر ، مضطهدا في كل الاحيان .

في ميزان الامير فخر الدين وحساباته كان لجبل عامل وزن خاص: اهرء حبوب في تناول يده لا يقاسمه اغترافه امير محلي آخر ( كابن

سيفا وسهل عكار ) ولا يرى فيه باشا دمشق مجالا حيويا لباشويته كما يرى في سهل البقاع . وقلاع جبل عامل الكثيرة ( الشقيف . تبنين ، دبي ، شمع ، دير كيفا ، هونين ) أحوج ما يكون لها الامير على ابواب صيدا للحجاج الاوروبيين الذين تعهد الامير لبعض ملوك الغرب بحمايتهم في طريقهم الى بيت المقدس . أضف الى ذلك ان الشيعة يمنيون ، والامير فخر الدين رأس القيسية . وصراع القيسية واليمنية في مداه انذاك ، ويمنية شيعة جبل عامل تأخذ بعدا اكبر في سياسة الامير ، اذ ان علاقات متينة تربطهم مع شيعة بعلبك ال حرفوش . وهؤلاء على طيب علاقة مع باشوات دمشق الاتراك ووقوفهم الى جانب مصطفى باشا ضد الامير فخر الدين في معركة عنجر بين واضح . كل هذه الحوافز ، خاصة مع وجود مشروع استقلالي كبير كالذي عند الامير ، لم تكن لتسمح ابدا بتدوير زوايا الصراع وتجاوزه بين جبل لبنان وجبل عامل . فمنذ البدء كان خصما عدائيا لا يحتمل المساومة . (٢)

غياب الامير فخر الدين لم يعن زوال مبررات الصدام بين الجبلين . فالامير . وان كان قد فشل في تحقيق مشروعه الاستقلالي . فانه قد نجح الى حد بعيد في جعل ميزان التفاوت الكائن في درجات التبعية للامبراطورية العثمانية يميل لصالح امارته جبل لبنان . فبالرغم من ان كل سوريا كانت ولاية عثمانية ، فان سلطة الباب العالي كانت اسمية على جبل لبنان ، مقارنة لها بغيرها مع باقي مناطق سوريا . وخاصة مقارنة لها مع منطقة مقطوعة الرأس كجبل عامل .

العلاقة مع الشهابيين خلفاء المعنيين . لم تجهد هذا الطابع الصدامي أو تنحو به منحى آخر ، فقد بدأت متفجرة مع السنة الاولى التي تولوا فيها الحكم ( ١٦٩٨ ) مع الامير بشير الراشاني (٣) وتتابع على نفس النسق مواكبة تغير الامراء في الجبل . أو تغير الباشوات العثمانيين في دمشق أو صيدا ، وقد دفع الشيعة فواتير



تلك الممارك خسائر في الارواح والارزاق « بجدارة شيعية عالية » .  
حتى كان عام ١٧٤٤ ، حيث تمكنوا من تسجيل انتصارهم الاول على  
امراء جبل لبنان بشخص الامير ملحم الشهابي (٤) واتبعوه بانتصار  
آخر عام ١٧٤٩ في معركة جباع ومرجعيون (٥) ، ولا يخفف من نتوء  
هذه الظاهرة وأهميتها في مجرى العلاقة بين جبل لبنان وجبل عامل  
انتقام الامير ملحم واحراقه بعض القرى ووصله حتى بلاد  
بشارة (٦) .

لقد احدث هذان الانتصاران تغييرا في «الوجه التاريخي» لمنطقة  
جبل عامل الذي كان نهر هزائم والام ينبع من كربلاء ويصب في موقعة  
انصار الثانية عام ١٧٤٣ وكانت اكتمالا لنشوء كيانه السياسي تحت  
قيادة شيخ المشايخ ناصيف النصار الوائلي عام ١٧٤٩ ، وهي تجد  
مقوماتها في اهتزاز المنطقة السياسي انذاك : فقد عرف النزاع  
اليزبكي - الجنبلاطي بداية اھتياجه في جبل لبنان مع قرب نهاية  
الامير ملحم الشهابي بدون عقب ، والامير بدوره على خلاف مع  
باشا دمشق لتخلفه عن دفع ميري الجبل . ظاهر العمر الزيداني  
على حدود جبل عامل الجنوبية على خلاف مع ابنائه من جهة ومع  
باشا دمشق من جهة أخرى . رقعة التعامل السياسي تضيق وتضيق  
والتوازن فيها دقيق وغير محسوم ، وهنا تبدو لجبل عامل أهمية  
خاصة ووزن أكبر ، فهو أكثر المناطق استقرارا بعد توحيده الآنف  
الذكر تحت قيادة ناصيف النصار وضمور الخطر الخارجي على حدوده .

ولكن العامل الحاسم في تغير الوجه التاريخي وولادة الكيان  
السياسي لجبل عامل ، كان وجود ظاهر العمر على الطرف الجنوبي ،  
فقد وجد فيه العاملون الحلقة المفقودة - على الارض طبعاً -  
خلال كل تاريخهم الطويل في المنطقة ، وهو بدوره رأى فيهم خط  
دفاع عن مقاطعته صفد التي كانت هدفا لاغلب غزوات الامراء  
الشهابيين ابتداء من ١٦٩٨ ، ولكن اثر هذه الحملات كان يصل بلاد  
صفد باردا ، بحيث لم تتأثر بها بنفس المقدار الذي كان يتأثر به جبل

عامل . وهكذا كانت منطقة جبل عامل وبلاد بشارة على الاخص  
بوابة لمقاطعة صفد وفلسطين بالتالي ، بالنسبة للامراء الشهابيين  
وولاية الدولة العثمانية ، وبالمقابل فبالنسبة لظاهر العمر كانت اما  
سياجا . واما على الاقل ربما لا متحركة تصونه امام اخصامه . لا بد  
اذن من تحالف بين الطرفين ، فالخصم مشترك ، لذلك رأينا ظاهر العمر  
بعد أن استطاع الامير ملحم الوصول الى بلاد بشارة للمرة الاخيرة  
سنة ١٧٤٩ « خائفا واخذ يجدد أسوار عكا » (٧) . وفي ظروف  
الضعف التي كان يعاني منها الطرفان كان التحالف في بدايته ضميا  
خفيا . ومع الوقت اخذ التحالف يبدو للعلن بمساعدات عسكرية  
نعلية يقدمها ظاهر خاصة في المعركتين اللتين ربح فيهما الشيعة ضد  
الامير ملحم . ثم تطور سنة ١٧٦٧ م ( ١١٨١ هـ ) الى معاهدة قد  
تكون الاولى من نوعها بين حكام المنطقة ، فقد كانت كما حددها  
ميخائيل نقولا الصباغ « محالفة دفاعية هجومية » (٨) .

التحالف مع ظاهر العمر انزل الشيعة ولاول مرة كطرف في  
لعبة المنطقة ، من موقع التحدي للدولة العثمانية ، بوقوفهم مع  
علي بك الكبير حاكم مصر ومحاولته الابتعاد عن السلطنة ، وقد  
خاض الشيعة في عامي ١٧٧٠ - ١٧٧١ منفردين أو بمساهمة  
متكافئة مع ظاهر معارك خمس كبيرة : نابلس ، دمشق ، الحولة ،  
كفر رمان حارة صيدا ، ضد الامير يوسف منفردا أو متحالفا مع عثمان  
باشا والي دمشق أو ابنه درويش باشا والي صيدا ، وقد انتصروا  
فيها جميعا واحتلوا صيدا مع ظاهر ودخلوا دمشق مع ابي الذهب  
قائد حملة علي بك الكبير الى سورية (٩) .

ان هذه الانتصارات البكر التي فاز بها الشيعة ضد امير الجبل  
يوسف الشهابي وولاية الدولة العثمانية ، كانت أكبر من أن يتحملوا ،  
بكيانهم الناشئ المدين بولادته الى سند خارجي ، نتائجها ، فمع زوال  
هذا السند ( ظاهر العمر ) على يد الجزائر ، وقفوا ضائعين بلا حول



ولم تنفع وفودهم وهداياهم في رد طغيان الجزار عليهم . وقد وقع عام ١٧٨٠ .

ودخول الجزار الى جبل عامل كان أبعد أثرا مما تنقف عنده الادبيات العملية : دخان المكتبات المحروقة ورائحة الجثث ، وذلك لان فترة ما بعد الجزار مع الأمير بشير الشهابي الكبير ، عرفت تحولا جذريا في علاقة جبل لبنان بجبل عامل . ففي الوقت الذي كان فيه امراء الجبل اللبناني ابتداء من فخر الدين الثاني (١٠) بدخلون جبل عامل غزاة جبلة ، دخله الأمير بشير حاكما شرعيا باجماع مشايخه الذين أجابوه صاغرين بعد ان حدثهم عن دوره الكبير لدى سليمان باشا خليفة الجزار في ارجاعهم الى بلادهم « انهم يأنمرون بكل ما يريد ويرسمه » (١١) . صحيح ان مشايخ جبل عامل انذاك كانوا محشورين في بضعة قرى من اقليم الشومر ، بموجب صك الصلح الموقع بين سليمان باشا و « الطياح » في جبل عامل الذين استطاعوا بعد حركة مسلحة طويلة التخلص من سيطرة المشايخ (١٢) ، ولكن هؤلاء « الطياح » وهم الغالبية الفلاحية في جبل عامل عادوا وانضوا تحت سيطرة المشايخ للتمكن من الوقوف في وجه السياسة الابتزازية للأمير بشير الشهابي . ولأول مرة يدخل الشيعة في النظام العائلي الاجتماعي لجبل لبنان وعلى رأسه الأمير بشير الشهابي « رأس سائر العشائر ، على كل حال المشايخ المذكورين ( مشايخ جبل عامل ) من العشائر التي هو رأسها » (١٣) . لقد أخضع هذا الانضواء الطوعي منطقة جبل عامل للتأثيرات التي خلفتها سياسة الأمير بشير والتي كان لجبل عامل فيها اعتبارات خاصة ، ليس اقلها مردودها المالي ، وحاجة الأمير لها في احداث واقعة أو مستجدة سواء منها داخل الامارة أي في صراع الأمير مع عائلات جبل لبنان أم في علاقاته مع الدولة العثمانية وباشواتها .

عام ١٨٦٤ ، وبموجب التنظيمات الجديدة لمنطقة سوريا الحق جبل عامل بولاية بيروت ، وهذا يعني انه أصبح جزءا عضويا من ولاية شاملة متسعة على عكس وضعه السابق ، وهذا ما جعل

العلاقة بينه وبين جبل لبنان تتخلى عن صداميتها العسكرية بعدد « الحجر السياسي » الذي فرض على الآخر بموجب نظام المتصرفية . ولكن هذه العلاقة اتخذت مسارا جديدا لا يقل استنزافا وصدامية : لقد أصبح جبل عامل وفلاحوه رهائن للمرابين القادمين من صوب بيروت وجبل لبنان ( ال جوهر ، ال غندور ، ال الصلح ، ال فرنسيس ، ال الشمعة ، ال مجدلاوي ، ال عودة ) ، وقد توكلت هذه البرجوازية في مد سيطرتها على جبل عامل على ازدهار زراعة التبغ فيه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وقد كان ازدهار الزراعة على حساب المزروعات الغذائية التي تقلصت وأفسحت أمامها أخصب الاراضي . ولكن هذه الزراعة عادت وضربت بعد احتكارها من قبل شركة الريجي الفرنسية في أول الربع الاخير من القرن التاسع عشر التي فرضت شروطا على هذه الزراعة ، لقد « أخذت الريجي بمصر زراعة التبغ في مناطق معينة وذلك ليتسنى لها حصر الانتاج في أماكن ضيقة تسهل مراقبتها لمكافحة الانتاج اللقانوني وتهريبه ، وكان كل فلاح يود زراعة التبغ مطالبا بالحصول على اذن من الشركة ، ولم يكن كل فلاح قادرا على نوال هذا الاذن ، فلكي يحصل الفلاح عليه كان لا بد له ، وحسب نظامها من التصرف بأرض لا تقل عن خمس الهكتار وأن تكون محاطة بسيج ، والا تكون المساحة الفاصلة عن المدينة بأقل من ٣ كلم ، وان تكون صالحة لزراعة التبغ » (١٤)

ان هذه الشروط مجتمعة في منطقة كجبل عامل تضيق فيه الملكية الصغيرة التي كثيرا ما تقل عن الحد المطلوب قانونيا أدت الى تدهور الزراعة فلكي يستطيع الفلاح أن يزرع تبغا كان عليه استئجار أرض اضافية وبأسعار عالية ، وان يستدين لبنني سياجاً ، وان « يرضي » أصحاب العلاقة ليقرروا ان كانت أرضه صالحة لزراعة التبغ ، وهذا التدهور أدى الى تجميع الملكيات الصغيرة أو انتقال الملكيات الكبيرة ، نتيجة عمليات الربا والرهن الى أيدي قلة متمولة من خارج جبل عامل ( البرجوازية البيروتية واللبنانية . ال



المعظم يملكون مطاحن وادي الحجر ) . لان الفئات المتكئة في جبل عامل ( ال الاسعد ، ال الفضل ) لم تكن قادرة على تخطي اصولها الاجتماعية والدخول في شبكة العلاقات الرأسمالية . هذا بالإضافة الى الابتزاز الذي كان يفرضه منطق التبعية الاقتصادية ، فقد كان اهالي جبل عامل ينهبون كمستهلكين ، في نفس الوقت الذي كانوا ينهبون فيه كمنتجين عن طريق شراء محاصيلهم بالاسعار التافهة . ان هذه السيطرة الاقتصادية هي علاقة صدامية بحد ذاتها ، فالتاجر « الاجنبي » يبقى اجنبيا دوما ، رغم تبلمه وسكنه في جبل عامل ( ال عودة ، ال فرنسيس ، ال جوهر ، ال مجدلاوي . . ) وقد ترافقت هذه السيطرة بأخرى سياسية فقد أصبحت هذه البرجوازية المرجع الاول في القضايا الحاسمة في جبل عامل : ففي الخلاف الذي نشب في أواخر ستينات القرن التاسع عشر داخل اسرة ال الاسعد « جاء أحمد باشا الصلح ، وأصلح بين الزعيمين ، فأعيد تامر بك لمقاطعته وبقيت الرئاسة لطي بك » ( ١٥ )

عام ١٩٢٠ . عام التحول السياسي في حياة المشرق العربي السياسية ، كان كذلك عام الحسم بالنسبة لعلاقة جبل عامل بجواره وخاصة بجبل لبنان ، وهو عام تصفية الكيان الذاتي الذي كان قد كسبه جبل عامل ابتداء من سنة ١٧٤٩ ، وذلك بقيام دولة لبنان الكبير ، وبهذا الضم الجديد تتكون مجموعة من التناقضات على الأصعدة المختلفة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية ، ليس اقلها الشرح السياسي اللبناني بين دعاة الوحدة السورية ، واستطراد العربية . الرافضين لبنان كيانا مستقلا ، وبين دعاة لبنان المستقل . وهذان الاتجاهان السياسيان ما زالا تقريبا يلخصان الحياة السياسية في لبنان .

لقد وقف العاملون بصلابة مع الحركة العربية عام ١٩١٦ - ١٩٢٠ ، وساهموا بفعالية في طرد الاتراك ، وتابعوا عصيانهم المسلح ضد وجود الحلفاء وضد مشاريعهم السياسية لتقسيم

سوريا ، بقيادة صادق الحمزة وأدهم خنجر ، وكان مطلبهم الواضح الالتحاق بالملكة السورية ، وليس المجال هنا للحديث بالتفصيل عن هذه الحركة المسلحة ( العصابات ) التي تمكنت من اقفال جبل عامل بوجه الفرنسيين . ولكن الشيء الملفت للنظر ان هذا الموقف الوطني الواعي لجماهير العاملين ينقلب في اللحظة الأخيرة ويتمحور الى هجوم على بعض القرى المسيحية ( عين ابل ) ، بالرغم من ان العصابات العاملة في جبل عامل وخاصة كبرياتها ( عصابات صادق الحمزة وأدهم خنجر ) كانت أبعد ما تكون في طروحاتها عن العمل الطائفي . ففي مؤتمر وادي الحجر الذي انعقد في ٢٤ نيسان ١٩٢٠ « جلس صادق امام العلماء والقرآن بين ايديهم فأخطوا عليه وعلى رجاله الايمان المفلطة ان لا يتعرض لاحد من المواطنين ابناء جبل عامل مسلمين كانوا أم مسيحيين . فأقسم بذلك واستثنى من كان منهم البا للفرنسيين على الوطن واستقلاله ، مجاهرا بذلك للفاصين المحتلين مسلما كان أو مسيحيا أو من أي مذهب كان لان جهادنا سياسي لا ديني » ( ١٦ ) .

ومع الاخذ بعين الاعتبار . مواقف السلطات الفرنسية وخلصها عصابات موالية لها في القرى المسيحية ( القليعة ، عين ابل ) ، ومواقف بعض القيادات السياسية في جبل عامل والمؤيدة للفرنسيين ومشروع لبنان الكبير ، فان هناك سؤالاً يطرح نفسه : كيف يتحول العمل الوطني في فترة ما الى عمل طائفي ؟ وما هي خلفيات ذلك على أرضية الواقع في جبل عامل ؟

ان القوى المسيحية في جبل عامل ، بتعاملها مع القضايا السياسية ، وخاصة الكبرى منها ، لم تكن أبدا منسلخة عن ميزان وتوجهات القيادة المسيحية في جبل لبنان ، بل ان هذه الأخيرة شكلت على الدوام بعدا ملازما للصراع بشكليه الكامن أو المتفجر في جبل عامل ، وكانت تفرض على « الاطراف » خطها السياسي الذي اكتملت ملامحه وبرزت في أحداث ١٨٦٠ والذي توسعت قاعدته افقيًا



لتشمل مناطق جديدة تحتوي عناصر مسيحية لم تدخل في أحداث ١٩٦٠ أو مناطق تشمل طوائف لم تدخل الأحداث بسياقتها المعروف (١٧) . وقد تطور هذا البعد بفعل الأحداث لان يصبح فعلا بعدا داخليا في جبل عامل ، يفعل مباشرة في العلاقة بين الشيعة والمسيحيين أثناء أحداث ١٩٢٠ ، والذي زاد من التصاق المسيحيين بقيادتهم العليا في جبل لبنان ان بلدة عين ابل نفسها تعرضت عام ١٨٦٠ لهجوم من قبل بلدة بنت جبيل ولمحاولة حرق ، وما هم في المقياس السياسي ان «قام بها جهال في تلك الفترة» (١٨) ، وهذا طبعا عزز لديهم الخوف من الداخل الشيعي الاسلامي ، وهكذا فان العهود في لبنان ، ما هم اكان لبنان كبيرا أم صغيرا كانت تعني الاتصال بالعق الطائفي في جبل لبنان ، الذي يحمل بذاته الرد على العق الشيعي المحيط ، وهذا يتطلب برايمهم حماية أجنبية ! فكيف اذا كانت فرنسا هي الحامية ! وفي هذا السياق بالضبط يأتي جواب أهل عين ابل عندما طلب منهم صادق الحمزة القاء السلاح ورفع العلم الشريف : « انهم يهنتون الأمير بسمو مقامه ولا يمكنهم دفع سلاحهم ولا رفع العلم الا بأمر حاكمهم الفرنسي في صور » (١٩) .

وفي الطرف المقابل ، كان الدخول في لبنان الكبير يعني بالنسبة للشيعة انسلاخا عن واقع عربي اسلامي ، يتأكد أكثر فأكثر ان لواء القيادة فيه معقود للهاشميين ، الشريف حسين وأبنائه ، فقد دفع شيعة جبل عامل أكثر للنضال في سبيل هذا الواقع ، الأحداث الدموية المتفجرة في العراق ١٩٢٠ ، والتي انطلقت ضد البريطانيين مؤيدة للهاشميين من مدينة النجف بالذات . لبنان الكبير يعني جعل طائفة الشيعة بلا حول أو قوة امام طوائف أخرى هي أكثر عددا ، وأكثر امكانيات سياسية واجتماعية واقتصادية ، وأكثر استنادا الى ظهر خارجي . لبنان الكبير يعني وسياسة امراء الجبل وابتزازاتهم المالية ما زالت حية ، السيطرة على جنوب جبل عامل التي طالما بهرت عيونهم ، وموقف الشيعة انذاك من المشروع السياسي المطروح (لبنان الكبير) تمثله خير تمثيل كلمة الشيخ عبد الحسين صادق :

« جبل ( جبل لبنان ) يتطلع جبلا ( جبل عامل ) » .  
ان هذه المقابلة بين الطرفين المسيحي والشيوعي في جبل عامل كان يزيد من حدتها ، التصاق الطرفين بدائرة جغرافية واجتماعية محددة ، فهي لم تكن مقابلة بين طرفين منفصلين يمكن للواحد أن يستقل عن الآخر ، وبالتالي يخرج من دائرة المواجهة ، اضافة الى أن قوة الأحداث وتسارعها في تلك الفترة كانت تمنع الوصول الى حل وسط ، كما كان يحدث في بداية أحداث منتصف القرن التاسع عشر في جبل لبنان : نظام القائمقاميتين ، ترتيبات شكيب أفندي ، فبينما كانت الهتافات في عين ابل « بيبا ( فيفا ) فرنسا بيبا ، يحيا دين الصليبا » « فرنسا يا شعب مليح يا معزز دين المسيح » ، كانت الهتافات في بلدة بنت جبيل المجاورة « تقوا موتوا يا عدوان البنديرة شريفة » . ونظرة بسيطة الى هذين الهتافين ترينا التحدي المطروح من كلا الطرفين ، وترينا التناقض الصارخ وعدم امكانية الالتقاء في منتصف الطريق : فالتحية لفرنسا ودين الصليب لا تستمد أساسها من « ذات » فرنسا ومن « ذات » دين الصليب ، فالهتاف هنا سياسي وليس مونولوجا جماعيا يردده الاهالي ببراءة وطهارة . وهذه الهتافات تستمد أساسها فعلا من وجود طرف شيعي ، له نظرته المغايرة من فرنسا ومن دين الصليب كمتعاون معها . وبالمقابل الهتاف الشيعي « تقوا موتوا يا عدوان البنديرة شريفة » ، « فالعدوان » هنا ليسوا « المفضوب عليهم » ولا « الضالين » ولا يزيد بن معاوية ولا القوات التركية الراحلة الى غير رجعة ، ببساطة انهم أهل الجوار من مسيحيي المنطقة الذين يعارضون البنديرة الشريفة . وادراك المقصود من الهتاف عند كل طرف من قبل الطرف الآخر مسألة بسيطة لا تحتاج الى حس سياسي وأرع مسبق ، الحس السياسي العفوي كفيلا يفهم كل الابعاد السياسية لهذه الهتافات .

بعد هذا البحث في العوامل التي كانت تؤثر في الوعي السياسي عند شيعة ومسيحيي منطقة جبل عامل في مواقفهم من أحداث ١٩٢٠ والمشاريع السياسية المطروحة انذاك ، وهي عوامل تمد



بجذورها في مسلسل التحولات التي كانت تطرا على منطقة جبل عامل باتصالاتها وتفاعلاتها مع جبل لبنان ، بعد هذا نستطيع ان نفهم كيف قبض للشكل الطائفي ان يصبغ بصبغته عملا وطنيا كبيرا للعاملين عام ١٩٢٠ . وهذا الشكل الطائفي بدوره شكل مدخلا للقوات الفرنسية لاحتلال جبل عامل بعد ان أصبح لديها دليل تثبت منخلاله حقها في حماية الاقلية المسيحية، وفعلا جردت فرنسا حملة، على جبل عامل بقيادة الكولونيل «نيجر» مارست ضروب القتل والنهب والتدمير (٢٠) والارهاب السياسي والفكري ، هذا الارهاب الذي استمر حتى ثلاثينات القرن الحالي والذي دفع بشاعر عاملي ، عبد الحسين عبد الله ، ان يحسد كلابا على مزيلة :

بهنيكم يا كلاب الحي انكم لا تشعرون ببشكوف ولا جان .

والغريب ان الدولة اللبنانية كائنات الكولونيل «نيجر» واطلقت اسمه على احد شوارع العاصمة .

\*\*\*

والان . كيف انعكست هذه العلاقة الصدامية على الوعي والفكر الشيعيين ؟

ان هذه الصدامية المتواترة مع جبل لبنان منذ القرن السابع عشر حين بدأت بداية ازمة الدولة العثمانية ، وحين اجبرت السلطنة على الاعتراف باستقلال ذاتي وجوهري للملل والطوائف الدينية (٢١) ، كانت تحمل في احشائها بذور وعي سياسي طائفي جديد لدى شيعة المنطقة . وجد اولياته مع فخر الدين الثاني ، فالاضطهاد الايوبي او الملوكي لم يحمل بذورا مثل هذه ، لانه في عرف شيعة جبل عامل ووعيمهم بقي معلقا في فراغ الصدام الاكبر منذ كربلاء دون ان يلامس الارضية الاجتماعية والسياسية للواقع المعيش . مع المعنيين والشهابيين خرج التشيع من مدارس التعليم الديني والتي كانت

كثيرة في المهدين الملوكي والايوبي ، وكذلك خرج التشيع من التقية « الملجأ » الشيعي الامين في الازمات ، ليطل وجودا سياسيا ملابيا طائفيا، فالشيعة في جبل عامل اكتشفوا انفسهم كشريحة محددين في الزمان والمكان من خلال تعاملهم مع مسيحيين ودروز وسنة . وعي هذا الوجود الطائفي المحلي انعكس في التسمية الجديدة « المتاولة » والموقوفة عليهم وحدهم من بين « رافضة الاسلام » والتي ترجعها المصادر اما الى اوائل القرن الحادي عشر للهجرة واما الى اخره (٢٢)، وفي كلتا الحالتين يبقى مولد التسمية بين ١٦٠٠ - ١٧٠٠ اي انها وردت مع بدء التفاعل الدرزي السني المسيحي المباشر مع شيعة جبل عامل . والخلاف على مصدر اشتقاق الكلمة لا يعدل في دلالاتها ، فسواء اكانت مشتقة - كما تذهب الادبيات العاملة - على غير قياس من تولى أي اتخذ وليا او على « قياس » من توالى على حبه لال البيت ، او من « مت وليا لعلي » نداء ينخون به بعضهم في المعارك ، فان كلمة متوالي بتفسيراتها تبرز الشعار الموحد والجامع « الامام علي وال البيت » ، وهذا بديهة ليس بجديد ، وجه الجدة يمكن في مرادفة التسمية الجديدة لسلوك سياسي جديد في مرحلة تاريخية معينة ، وملاحظة الشيخ علي الزين حول التسمية في تمام محلها « على اننا لم نجد هذا اللقب قد انتشر الا بين الذين غامروا في لهوات الحروب في ذلك العصر ، وانغمسوا في تلك الفتن مثل بلاد بشارة وبلاد بعلبك وكسروان ، اما الذين لم يندمجوا في هذا السلك الاحمر كسكان دمشق منهم وارباض حلب ، فلم يكن لهم من اطلاق لفظ المتاولة عليهم نصيب » (٢٣) .

وهكذا ففي الوقت الذي كانت فيه « حياة » الشيعة « فترة سجن » يذوبون فيها حينئذ لال البيت مصهورين بحبهم لهم « من ذرف دمعة على الحسين فقد اطفأ جهرة من نار جهنم » ، يعيشونها كتلة هلامية تمثل الحق المطلق وليس وجودا سياسيا فاعلا . ولماذا الفعل ؟! ما دام الحق قد غلب نهائيا بمقتل الحسين ولن يعود الى نصابه الا مع ظهور المهدي الذي سيملا الارض عدلا بعد ان ملئت



جورا ، ولا سلطة اطلاقا خارج هذا الظهور ، وما دامت الامامة تكليف من الله ، فان رفض السلطة لم يعد يعني فقط رفض المفتصبين الاوائل ( الامويين والعباسيين ) بل رفض اية سلطة خارج ظهور المهدي ، فمذولة الفاطميين والبويهيين والاييرانيين كلها سلطات زمنية في عقيدة الشيعة لا تمت الى الدين بصلة . ففي الوقت الذي كانت فيه « حياة » الشيعة كذلك ، أصبحت مع المعنيين والشهابيين وخاصة في فترة ناصيف النصر لها ابعاد « متواليه » عاملية ، يتعامل الشيعة بكل ادواتها الدنيوية والسياسية : السيف والخيل ، الخصم المحدد والصديق الحليف ، الارض المحرمة على العدو ، العز والجاه والوجاهة ، ولنا من قصائد الفلستيني « شناعة الرمي » الناطق زجلا باسم المتاوله في كل اشعاره ، عن ضراعهم مع أمير جبل لبنان يوسف تمثيل لهذه الافكار الطارئة :

— لا بني متوال ظهر العاديات  
من ظهور الخيل يمشون الصقال

— ما يفوت المير ديرتنا حرام  
لو نبت من فوق طربوشو النخل

وفي وصفه لجيش الامير يوسف :

— دروز وغز وتلايم معاهم  
كراد رجال ما يدروا الوجاهة

على لسان ناصيف النصر :

— ما زالي ناقل للرمح بيدي  
بني متوال في عز وجاها

وقد وعى الشيعة انفسهم كمتاوله الى الاخر ، بمعنى أن وعي الذات في واقع طائفي متأزم يفترض الخط من قيمة الآخرين من

طوائف أخرى ، والنيل منهم والاستهزاء بهم ، على لسان نفس الشاعر في وصف جيش الامير يوسف الشهابي في موقعة كفر رمان التي انتصر بها المتاوله :

— شي دروز وشي يهود وشي قروود  
وشي نصارى وشي كراد وشي ملل

يحسبون إلحرب هو بيعة حرير  
وايش جاب الحرب لغزل الشلل

ومع تغير شكل العلاقة بين المنطقتين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وزوال الصدامية مع اقرار نظام المتصرفية الخاص بجبل لبنان ، لم يتغير مضمون هذا الوعي ، وانما ارتد الى مستواه الديني . ومرة ثانية يحضر الزجل الشعبي شاهدا على هذا التحول ، ففي مناظرة شهيرة بين الزجلي المتوالي « محمود حدانا » وآخر مسيحي « داوود » في اواخر القرن التاسع عشر ، يحال « محمود حدانا » اثبات تفوق المتاوله « نوعيا » على المسيحيين ابتداء من الايمان بوحدانية الاله :

— متوالي ومش متخبي  
الله اخبر في- وفيك

مش متلك جاحد ربي  
وعامل لو حرمة وشريك

ابتداء من هذا وانتهاء بكل التفاصيل والفروقات الصغيرة بين الحياة الدينية الاجتماعية للطائفتين . ولا ينسى الشاعر المتوالي في المناسبة استحضار الدروز والتذكير بتفوق المتاوله عليهم ، حتى ولو كانوا خارج دائرة المناظرة انذاك ، اذ يقول على لسانهم :

— بني متوال ما فيناش ليهم نعم شدوا العزيمة على النصارى



وطبعا ليس من قبيل الصدفة أن تكون الامثلة مسحوبة من الزجل الشعبي ، وقد تكون مقتصرة عليه ، فهو مؤشر التوجيهات السياسية والاجتماعية الشعبية ، كونه أكثر شيوعا وأكثر التصاقا بتفاصيل الحياة اليومية .

★★★

ان وعي الشيعة لتمييزهم تفاعل مع مستجدات القرن ١٧ وما بعده ، فتميزهم قبلا كان في تذكر أئمتهم ، وفي التذكير عبرة ومعركة ذات ، فسيرة الأئمة معلم تاريخي يتعدى في خصوصيته وفعله الاجتماعي ، بالنسبة للشيعة ، السيرة النبوية ، كفعل سياسي عام ، فالأئمة هم « مصابيح الهدى وقناديل الدجى والنجم الساري في الليل » ، وقد اعتبر الشيعة في جبل عامل من سيرة أئمتهم ( ليس منا آل البيت من لم يمت مقتولا أو مسموما ) ، وقدموا في عصر المماليك الشهيد الاول ، وقبل فخر الدين قدموا الشهيد الثاني . الاول ، كما تصفه الادبيات العامية « كان فقيها عملاقا في المقدرة والشهرة ... اعتقل من قبل السلطان المملوكي ، دام اعتقاله احد عشر شهرا ، ثم قتل وصلب واحرق جثته في ١٣٨٤ » (٢٤) والثاني بموجب الادبيات العامية كذلك ، « عالم قتل بعد أن اتهمه السلطان كعبتدع خارج على المذاهب الاربعة ... وقيل انه بقي مطروحا ثلاثة أيام في العراق » (٢٥) .

ان مفهوم الشهادة في الحالتين ، مفهوم شيعي صرف ، بمعنى ان الشهادة هنا تدخل في نطاق الصراع الثنائي بين الخير والشر بين الشيعة و « الآخرين » ، الصراع الذي ينتج نفسه دون فجاءات ، فالنظرة الشيعية تسقط التاريخ من حسابها والاحداث تتساوى ما دامت جميعها حلقات سوداء في خط الإنسانية الذي غدا أسود منذ بويج أبو بكر وغصب حق علي .

منذ بداية القرن ١٧ ، ومع تغير طبيعة المواجهة الشيعية مع

المعنيين والشهابيين ظهر « الشهيد السياسي » ، فالشهادة تحولت من شيعية لها أبعادها الكونية الى شهادة متوالية عاملية حيزها محدد زمانا ومكانا . فإذا كان الشهيذان الاول والثاني قتلا في فترة عرفت تعصبا ضد الشيعة مع المماليك ( حملة كسروان وفتاوى ابن تيمية ) وبعد أن اتهمتا كعبتدعين خارجين على المذاهب الاربعة — كما تخبرنا الادبيات العامية — وفي أمكنة خارج جبل عامل : الشهيد الاول في دمشق ( عاصمة الامويين ) والشاهد الثاني في الطريق الى الاستانة ( مركز السلطة الطاغية ) مما يستلزم ويصقل شفرة المواجهة ، بتكرار شكل النموذج التاريخي الشيعي ( السمع يستشهد الحسين بعد خروجه الى كربلاء ؟ ) ، فان الشهيد السياسي له في شهادته وجه آخر ، زعماء جبل عامل : مشرف بن علي الصغير ، علي بن علي الصغير ، منصور بن علي الصغير ، ناصيف النصار ، عباس المحمد ، علي الفارس الصعبي ، قاسم المراد ، علي المنصور المنكري واخرون غيرهم قتلوا في أماكن من جبل عامل ولاسباب محددة : هي حسب رأي مؤرخي تلك الفترة وروايتها : ثار من أمير جبل لبنان لشماتة الشيعة بوفاة والده ، « مخرقة » المتاولة على حدود إمارة الجبل ، خلاف على ملكية قرية ، تهرب من دفع ميري ، انتقام الشيعة من الدروز بعد الاعتداء على مكاري منهم . الشماتة ، المخرقة ، الانتقام ، ملكية لقرية ، كرامة الطائفة واستقلالها السياسي والاقتصادي ، كل هذه أسباب خصام ومجابهة بين شيعة جبل عامل والجوار ، ولا مجال هنا ابدا لمقارنة هذه « الفتن الصغرى » « بالفتن الكبرى » ، مفاصل التاريخ الشيعي ومنبع الشهادة فيه : اغتصاب الخلافة من علي وبلاء كربلاء .

ان ظهور الشهيد السياسي كان يواكب انتظام المتاولة في وحدة سياسية لها وعليها ، تخاصم وتعقد تحالفات ، والمرحلة التي نحن بصدد الحديث عنها تحفل باشارات بالغة الاهمية على هذا الصعيد ، فبعد أن كان تعاضد الشيعة فيما بينهم « دب صوت » ، ينقل لأول مرة عن انه أثناء مهاجمة فخر الدين الثاني لبعض القرى في جبل



عامل كان « وجههاؤها غائبين في جمعية لبني متوال » (٢٦) ، وهذا حدث بحد ذاته في تاريخ جبل عامل السياسي . الحدث الثاني كان مراجعة الشيعة مجتمعين ، وان لم يكن تحت قيادة موحدة ، الامير أحمد المعني عام ١٠٧٧ هـ - ١٦٦٦ م في واقعة النبطية (٢٧) ، ومع تراصف الشيعة في جبل عامل تحت قيادة سياسية واحدة مع ناصيف النصر تحفل المراجع التاريخية باشارات كثيرة عن تحالفات بين جبل عامل وجواره كالمخالفة الدفاعية الهجومية مع ظاهر العمر أو بالجمعيات الكثيرة التي كانت تعقد دوريا بين بعض الامراء الشهابيين والشيخ علي جنبلاط من جهة وبين الشيخ ناصيف النصر من جهة ثانية في صور أو حاصبيا أو دير القمر أو عكا (٢٨) .

قد يتبادر هنا الى ان المتولة في جانبها السياسي الجديد لشيعة جبل عامل في تعارض مع التشيع كمبدأ ديني صرف، وهي في تحديدها واقتصرها على شيعة جبل عامل في تعارض مع كونية هذا المبدأ ( ليس بلد أحب بك من بلد خير البلاد ما حملك . الامام علي ) ولكن هذا التعارض يغور اذا ما أدركنا ان هذا الواقع السياسي الجديد لم يكن بمعزل عن المحرك الطائفي الديني ، فالتفاعلات التي حصلت مع رؤية كل خلفياتها السياسية والاجتماعية لم تكن بنظر « المتوالي » سوى ان الآخرين من مذهب آخر يريدون منه كطائفة ومذهب أولا وقبل كل شيء ، فالسياسة والاجتماع ، ليست « قضايا » شيوعية واستطرادا ليست قضايا متوالية ، واذا كان لا بد من الحرب فلتكن ضد اعداء التشيع كمذهب والشيعة كطائفة ، وهذا طبعا قمة الصفاء الديني وقمة الاخلاص لله والائمة ، اذ يكفي ان يضحى الانسان « شيعيا » حتى يكون قد اختصر مسافات زمنية من الايمان ومصره بالطبع الجنة ، والمتولة لا تخرج أبدا عن هذا الإطار ، فهي ممارسة سياسية للتشيع « المتربص » ، الحذر ، الذي صفع وأدمى مرارا اخرها مع المالك والايوبيين ، فجبل عامل بنظر أهاليه « ووشك ان يكون » أرض التشيع المختارة « والدفاع عنه سلطة وحدودا وخيرات ، دفاع عن التشيع مذهباً كونياً ، كيف لا ، وجبل

عامل — بعرف مؤرخيه اول المناطق تشيعا ، ولم يسبق الى ذلك الا ثلة من رجالات المدينة المنورة (٢٩) ، وهو ثانيا ، بعرف مؤرخيه — كذلك ، تشيع على يد صحابي جليل: أبو ذر الغفاري ، أحد أربعة مقربين الى قلب الرسول ، يدخلون الجنة بغير استئذان ، واسمه يذكر غالبا مقرونا بالحديث الشريف « ما أظلت الغبراء ولا أقلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر » ، وشيعة جبل عامل ليسوا كغيرهم — وان تشيع — أهل فتنة ونفاق ، ولم يملأوا قلب علي قيجا ، كما يدين الامام شيعة العراق ، وهم أخيرا لم يستشعروا مرة ندما ، كما غيرهم ممن تخلى عن الحسين في كربلاء ، وهم الان يرددون بصوفية تقترب من الغيبوبة ، في مجالس التعزية التي تعقد يوميا « يا ليتنا كنا معكم فنفوز فوزا عظيما » . يا ليتنا كنا مع الحسين ، لا ليهزم يزيدا ، بل لينتصروا هم على الدنيا ، بشهادة شيعة ، يفوزون بعدها بالجنة .



## بعض مراجع البحث

1 — PERRIER Ferdinand, La Syrie sous le gouvernement de Mehemet Ali, paris, 1842, p. 234.

- ٢ - للحصول على تفاصيل عن المعارك راجع : علي الزين ، للبحث عن تاريخنا في لبنان ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٢٥٤ - ٢٦٥ .
  - ٣ - راجع حيدر احمد شهاب ، لبنان في عهد الامراء الشهابيين ، بيروت ، ١٩٣٣ ، ص ٨ ، منير الخوري ، صيدا عبر حقبة التاريخ ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٢٥٩ .
  - ٤ - حيدر شهاب ، المرجع السابق ص ٣٤ ، سليمان ظاهر ، العرفان ، مجلد ٢٨ ، ص ٣٤٦ .
  - ٥ - للحصول على تفاصيل وافية راجع حيدر شهاب ، المرجع السابق ، ص ٤١ ، سليمان ظاهر ، العرفان ، مجلد ٢٨ ، ص ٣٤٨ ، طنوس الشدياق ، اخبار الاعيان في جبل لبنان ، مجلد ٢ ص ٢٩ ، علي الزين ، المرجع السابق ، ص ٤٤٠ - ٤٤٣ .
  - ٦ - راجع حيدر احمد شهاب ، مرجع سابق ص ٤٣ .
  - ٧ - راجع حيدر احمد شهاب ، مرجع سابق ص ٤٣ .
  - ٨ - ميخائيل نقولا الصباغ ، تاريخ ظاهر العمر ، حريصا ، دون تاريخ طبع ، ص ٣٩ .
  - ٩ - للحصول على تفاصيل واسعة عن هذه المعارك راجع : ميخائيل بريك ، تاريخ الشام ، حريصا ، ١٩٣٠ ، ص ٩٤ - ٩٦ ، وحيدر احمد شهاب ، مرجع سابق ، ص ٨٥ ، و
- Volney : Voyage en egypte et la Syrie pendant les années 1783 , 1784 et 1785 T. 2, p. 17 ,
- وادوار لأكروا ، تاريخ احمد باشا الجزائر ، تعريب جورج مسرة ، ساو باولو ، ١٩٢٤ ، ص ٢٩ ، ميخائيل نقولا الصباغ ، مرجع سابق ص ٩٩-١٠٢ ، حيدر رضا الركيني ، جبل عامل في قرن ، العرفان ، مجلد ٢٨ ، ص ٥٤ - ٥٥ ، علي الزين ، مرجع سابق ، ص ٥١٠ - ٥١١ ، عيسى اسكندر المعلوف ، دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف ، بعبدا ، ١٩٠٧ - ١٩٠٨ ، ص ٢٠٧ ، طنوس الشدياق مرجع مذكور ، ص ٤٣ .

١٠ - من المؤرخين من يجعل حكم المعنيين لجبل عامل مباشرة بعد معركة مرج دابق ١٥١٦ : راجع قرألي بولس ، تاريخ فخر الدين المعني ص ٩٢ - ٩٣ . اما الدكتور كمال الصليبي في بحثه « حول نسب فخر الدين » المنشور في جريدة النهار عددي ٣١ تموز و ١٤ اب ١٩٦٦ فيجعل السيطرة مع الامير فخر الدين المعني .

- ١١ - راجع ابراهيم العورة ، تاريخ ولاية سليمان باشا العادل ، صيدا ، لبنان ، ١٩٣٠ ، ص ٤٤ .
- ١٢ - راجع ابراهيم العورة ، تاريخ ولاية سليمان باشا العادل ، صيدا ، لبنان ، ١٩٣٠ ، ص ١٤٢ - ١٤٣ .
- ١٣ - ميخائيل مشاققة مرجع مذكور ، ص ٣٨ .
- ١٤ - بدر الدين السباعي ، اضواء على الرؤساء الاجنبي في سوريا ، دمشق ، ١٩٦٧ ، ص ٤٣ .
- ١٥ - محمد جابر ال صفا ، تاريخ جبل عامل ، دار متن اللغة ، ص ٥٩ .
- ١٦ - احمد رضا ، العرفان ، مجلد ٣٣ ، جزء ٩ ، ص ٩٨٩ .
- ١٧ - راجع وضاح شرارة ، في اصول لبنان الطائفي اليميني الجماهيري اللبناني ، بيروت ص ١١١ - ١١٣ .
- ١٨ - الشيخ محمد مهدي مغنية ، جواهر الحكم ، مخطوطة غير منشورة ،
- ١٩ - كليمنتين خياط ، المشرق ، مجلد ١٨ ، ص ٧٨١ .
- ٢٠ - للحصول على تفاصيل وافية عن اعمال الحملة ، راجع العرفان ، مجلد ٣٣ ، جزء ٦ ص ٦٠٩ - ٦١٠ ، عن لسان متطوع ساهم في اعمال الحملة .
- ٢١ - راجع : زكي مرشلاخ ، مدخل الى التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ١٥ .
- ٢٢ - راجع علي الزين ، مرجع سابق ، ص ٤٨١ .
- ٢٣ - علي الزين ، مع التاريخ العالمي ، صيدا ، ١٩٥٤ ، ص ٤١ .
- ٢٤ - علي مروه ، تاريخ جبع ، بيروت ، دار الاندلس ، ١٩٦٧ ، ص ٣٦ .
- ٢٥ - المرجع السابق ، ص ٤٧ .
- ٢٦ - علي الزين ، للبحث عن تاريخنا ... نقلا عن الصفدي ، تاريخ فخر الدين ، ص ١٦ .
- ٢٧ - علي السبيتي ، جبل عامل في قرنين ، العرفان ، المجلد ٥ ، ص ٢١ .
- ٢٨ - راجع حيدر رضا الركيني ، جبل عامل في قرن ، العرفان ، مجلد ٢٨ ، ص ١٥٨ - ٢٥٦ ، ٤٥٤ .
- ٢٩ - محسن الامين ، خطط جبل عامل ، الجزء الاول ، بيروت ، ١٩٦١ ، ص ٦٥ .



## جبل عامل في اطار التجزئة الاستعمارية للمشرق العربي

بقلم د. مسعود الضاهر

« كان يفر جنوبا ...  
« يحمل جثته ويهاجر ...  
« نحو حدود تركض خلف حدود ... »

يمثل هذه الرؤيا الدقيقة يكثف الشاعر الجنوبي شوقي بزيـع  
جدلية العلاقة بين الجنوبي المجير دوما على النزوح والهجرة وبين  
حدود الجنوب التي تركض باتجاه حدود الوطن العربي كله . انها  
رؤيا تكثف جدلية العلاقة على مستويات اربع :

— مستواها البشري من حيث هي خصوصية الجنوبي الراحل  
باتجاه نفسه .

— مستواها الوطني الضيق من حيث هي خصوصية الجنوب  
داخل لبنان الذي باتت كل جهاته جنوبا .

— مستواها القومي الواسع من حيث هي خصوصية صناعة  
الايوان أو الكيانات السياسية في اطار التجزئة الاستعمارية للمشرق  
العربي بعد الحرب العالمية الاولى .

— مستواها العالمي الشامل مهن حيث هي خصوصية حركة  
التحرر الوطني العربية في زمن الهجوم الاستعماري للسيطرة على



العالم وتدامج الراسمالين المالي والصناعي في عصر الامبريالية وما رافقه من استثمار مباشر وانتدابات ووصاية وحماية وحروب عالمية لاعادة اقتسام العالم من جهة ، وفي زمن قيام اول تحد عالمي لعصر الامبريالية مع انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى في روسيا القيصرية من جهة أخرى .

من هنا يبدو الكلام على الجنوب اللبناني بين الحربين العالميتين بمثابة القاء الضوء التاريخي على جزء من مشاريع التجزئة التي قامت على قاعدة اتفاقات سايكس - بيكو ولويد جورج - كليمنصو . فتدابير الانتداب الفرنسي والانتداب الانكليزي في المشرق العربي انذاك تكاد تشابه لولا بعض التفاصيل الصغيرة في كل من مناطق التجزئة .

لذا حاولنا الاجابة على السؤال المنهجي التالي :  
ما هو موقع الجزء ، وهنا جنوب لبنان بين الحربين العالميتين ، من التجزئة الاستعمارية الشاملة للمشرق العربي ؟ وهل هناك خصوصية فعلية لتطور هذا الجزء خلال النصف قرن المنصرم بعد قيام تلك التجزئة ؟

ان تاريخ الجنوب يؤكد على ارتباط هذه المنطقة الدائم بالمناطق التي شكلت ولايات دمشق ، وصيدا وعكا ، وبيروت ، وامارة جبل الدروز التي تحولت الى امارة شهابية . فجل عامل ، كباقي اجزاء هذه الولايات ، كان امتدادا بشريا وجغرافيا للمحيط العربي المجاور له في اطار السيطرة العثمانية المديدة (١) . وبالرغم من علاقته الاقتصادية والاجتماعية الوثيقة بولايتي صيدا ودمشق ، فان مرحلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ومطالع القرن العشرين كانت تشير الى تعزيز الروابط بين جبل عامل والداخل العربي الفلسطيني في اطار ولاية بيروت التي امتدت شمالا وجنوبا لتضم اجزاء واسعة من سوريا الحالية وفلسطين . فالفقاء ولايتة بيروت وكذلك متصرفية جبل لبنان عام ١٩٢٠ لتشكل دولة لبنان الكبير كان بمثابة التوحيد القسري للمدن الساحلية والاقتضية الاربعة مع المتصرفية ضمن دولة مركزية واحدة في اطار

المناطق والدويلات المشمولة بالانتداب الفرنسي بعد توجيه الضربة العسكرية للقوى الوحودية المعارضة للانتداب . ومع قيام دولة لبنان الكبير والدول السورية والفلسطينية والاردنية والعراقية وغيرها بدأ التطبيق العملي لاتفاقيات سايكس - بيكو ، ولويد جورج - كليمنصو وما تبعهما من اتفاقيات « حسن الجوار » عام ١٩٢٣ بين الانتدابين (٢) . وبدأ تاريخ الحدود التي تركض خلف حدود ، منذ ذلك الحين ، يلته وراء الارقام البشرية والجغرافية . فالحدود المعلنة مبهمة المعالم ، سواء في لبنان او في سوريا او في شرقي الاردن او في فلسطين وغيرها .

مساحة لبنان العشرة الاف واربعمائة كلم<sup>٢</sup> تضيق كثيرا عن هذا الرقم . فاتفاقية « حسن الجوار » بين الفرنسيين والانكليز كانت تعني تسهيل سيطرة الحركة الصهيونية العالمية على فلسطين والمناطق المجاورة لها لاقامة الوطن القومي اليهودي الموعود . ولا زال الشريط الحدودي الشائك يندفع من فلسطين المحتلة ، لا بل زادت الحدود المعلنة ابهاما وسقطت عشرات الكيلومترات في برائث قوى الاستيطان الصهيوني مباشرة او عبر الزمر العسكرية التابعة لها ، وتقلصت حدود لبنان الرسمية بنسبة كبيرة امحت معها صورة لبنان الكبير لتعلن « دويلة لبنان الحر » على ارض الجنوب والتي سيكون جبل لبنان القديم « احدى ولاياتها المحررة » على حد تعبير احد قادة الجبهة اللبنانية .

الحدود السورية والاردنية لم تكن اكثر ثباتا من حدود لبنان الرسمية . ونشير هنا اشارة عابرة الى الاسكندرون والجولان والضفة الغربية والقدس وقطاع غزة . ولعل ادوارا مشابهة لدويلات شبيهة بلبنان الحر يتم التحضير لها في العريش في ظل السيادة الاسرائيلية - الساداتية ، وفي قطاع غزة ، في اطار ما يسمى بالادارة الذاتية . وكل هذه الادوار تجد جذرها التاريخي الواحد في اتفاقيات التجزئة الاستعمارية للمشرق العربي يوم أعلن



اللورد بلفور وعده لليهود باقامة وطنهم القومي في فلسطين بعد أن تباحث بكلمات هذا الوعد اياما عدة مع الرئيس الاميركي ويلسن .

وقد نشر حسن صبري الخولي مؤخرا النص الاصلي لوعده بلفور كما عدله الرئيس ويلسن وعلق عليه بقوله : « وعد بلفور اميركي مئة بالمئة وكان لبلفور شرف الاعلان عنه فقط باسم حكومة صاحب الجلالة البريطانية » .

الجزر الاساسي اذا لمشكلة الحدود الراكضة او الراحلة باستمرار هي التجزئة الاستعمارية الفرنكو - انكلو - اميركية للمشرق العربي . واية رؤية تاريخية منهجية لمشكلة الحدود لا يمكن أن تكون علمية الا بربطها بالاصل الذي انطلقت منه . فمشكلة الجنوب اللبناني شعبا وأرضا ، هي احدى تفرعات ذلك الاصل ، وهي مرشحة للتأزم اكثر فأكثر طالما بقيت ركائز التجزئة في المشرق العربي .

### الحركة الصهيونية الداعية الكبرى للتجزئة الاستعمارية في المشرق العربي والمستفيد الاساسي منها

لا يتسع المجال لرصد تطور الحركة الصهيونية ونشاطها قبل الحرب العالمية الاولى . لكن ثمة ملاحظات اساسية توضح ابعاد ذلك النشاط على الساحة المشرقية حين اخذت المخططات الصهيونية تظهر الى حيز التنفيذ في اطار المخططات الانكلو - فرنكو - اميركية في الوطن العربي ، خاصة بعد ظهور الاحتياط الهائل من البترول في مشرق دنيا العرب . ابرز هذه الملاحظات التي تطل الجنوب اللبناني مباشرة هي التالية :

— الاستناد الى سفر التكوين لتحديد ارض الميعاد أو الوطن القومي اليهودي . وهذا التحديد شديد الابهام .

فالاصحاح ١٥ الفقرة ١٨ من سفر التكوين يقول على لسان يهوه مخاطبا ابراهيم « لنسلك اعطي هذه الارض من نهر مصر الى النهر الكبير » . ونهر مصر هو النيل والنهر الكبير هو الفرات . وانطلاقا من هذه الحدود بدأ غلاة الحركة الصهيونية ينشدون الدعوة الى حدود اسرائيل من الفرات الى النيل . وهذه الحدود تضم كامل فلسطين ، وشرقي الاردن ، ولبنان ، وصحراء سيناء وقسمها كبيرا من مصر ، وسوريا ، وجزءا هاما من العراق . وهذه الحدود لا تكتفي بما وصلت اليه الدويلات اليهودية السابقة في أوج مجدها ، بل تزيد عليها مساحات شاسعة من الاراضي . وهذا ما يؤكد الطبيعة التوسعية للحركة الصهيونية العالمية التي ، في حال امتدادها بين النيل والفرات ، تسحب خارطة جديدة أكثر اتساعا وانتشارا على حساب الارض العربية وتهجير سكانها .

هذه الحدود المبهمة لا تدع مجالا للشك ، ان لبنان بأكمله وليس جنوبه فقط ، واقع ضمنا وبالتأكيد في اطار اسرائيل الكبرى . وكل التصريحات الصهيونية تثبت ذلك منذ مطلع القرن العشرين حتى الان . ففي المؤتمر الصهيوني المعقود في المانيا في ٣٠ نيسان ١٩٠١ ، يقرر المؤتمر « ان من الواجب على الصهاينة انتزاع الاراضي المجاورة لفلسطين ودفع الهجرة اليهودية اليها . » (٣) وفي رسالة الى روتشيلد عام ١٩٠٢ يدافع هرتزل عن مشروع اسرائيل الكبرى التي تضم شبه جزيرة سيناء أو « فلسطين المصرية » على حدود تعبيره . وكافة تصريحات زعماء الصهيونية العالمية تؤكد على ضرورة ضم وادي الاردن ومرتفعات الجولان . حتى ان موشي دايان يوجه خطابه الى جنوده بعد حرب ١٩٦٧ قائلا : « اذا كان هناك كتاب التوراة وشعب التوراة فهناك أيضا أرض التوراة » . وتعبر « أرض التوراة » شديد الابهام لكن توضيح دايان يعطيه بعدد السياسي من حيث هو بعد توسعي استيطاني استنادا الى الاصحاح الحادي عشر ، الفقرة ٢٤ ، من « سفر التثنية » حيث نقراً « كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون ملكا لكم » . ويضيف مناحيم بيغن الى هذا التصريح بعدا آخر حين يقول : « يطلبون منا العودة الى حدود ما قبل ١٩٦٧ ، الا فيلعلوا



ان هذه الارض ليست ارضا محتلة بل ارض يهودية محررة » .  
فالاطماع الصهيونية لاقامة اسرائيل الكبرى شديدة الوضوح في  
جميع وثائق هذه المرحلة . لكن عملية تحقيقها احتاجت الى فترات  
زمنية متلاحقة لاسباب موضوعية منها :

— انعدام الوجود اليهودي الكافي في فلسطين نفسها والذي  
يسمح بتحقيق تلك الاطماع . لذا كان لابد من الدعوة الى الهجرة  
اليهودية العالمية الى ارض الميعاد . وتطلق الصهيونية على هذه  
الهجرة اسم العودة اي تجميع شتات اليهود من كافة بقاع الارض  
في فلسطين وجوارها اي اسرائيل الكبرى . وقد عبر ماكس نوردو ،  
أحد زعماء الصهاينة ، في المؤتمر الصهيوني الخامس عن هذه  
الفكرة بقوله :

« يدعي خصومنا ان فلسطين غير قادرة على استيعاب ما بين ١٢  
الى ١٥ مليون يهودي ... على أن ما يجب توضيحه هنا ان فلسطين  
لا تعني فلسطين الحالية بل اسرائيل الكبرى التي تضم الاراضي  
الواقعة بين الفرات والنيل ... » .

ومع تنظيم الحركة الصهيونية العالمية ومؤسساتها المالية والادارية  
والسياسية المختلفة بدأت اقامة المستوطنات للاف اليهود القادمين  
الى فلسطين قبل الحرب العالمية الاولى خاصة مشاريع البارون  
روتشيلد في شمالي فلسطين . ولم تلبث هذه الهجرة أن تزايدت  
كثيرا وارتفع عدد المستوطنات الصهيونية في فلسطين وارتفعت معه  
نسبة سيطرة الصهاينة على مساحات واسعة من الاراضي  
الفلسطينية .

— كانت الحركة الصهيونية العالمية ، حتى الحرب العالمية الاولى ،  
تركز دعايتها داخل الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا العظمى ولا  
تولي الاهتمام الكافي لكسب السياسة الفرنسية الى جانبها . وقد  
اشار هرتزل في مذكراته قائلا :  
« وحتى مطلع ١٩١٧ كانت القيادة الصهيونية واقعة تحت الوهم

الساذج بأن فرنسا ليست مهتمة بالبلاد الواقعة الى جنوب بيروت  
ودمشق ، وانه بإمكان الصهيونية الحصول على هذه المنطقة  
برمتها ضمن الوطن القومي اليهودي ... »

ولم يكن بمقدور الصهاينة التصريح عن مساحة الاراضي التي  
يرغبون في السيطرة عليها في ظروف انعدام تواجدهم البشري القاضي  
بتحقيق تلك السيطرة . فكانوا يتهربون من الجواب عندما يطرح  
عليهم السؤال التالي : « ما هي الارض التي تريدون اقامة دولتكم  
عليها ؟ » وحين سأل المستشار الالماني الزعيم الصهيوني هرتزل ما  
اذا كانت الدولة الصهيونية ستمتد شمالا حتى بيروت . فكان جوابه  
« سنطلب ما نحتاج اليه من الاراضي وتزداد المساحة مع ازدياد  
عدد المهاجرين اليهود ... » . وهذا الجواب يؤكد بوضوح  
الاستراتيجية الصهيونية في تعاطيها مع الواقع العملي . وعندما  
أدركت الصهيونية ان فرنسا عازمة على توسيع رقعة المتصرفية الى كافة  
الاتجاهات أي نحو البقاع والجنوب والسواحل وعكار ، حاولت  
استمالة البطريرك الماروني الياس الحويك للتخلي عن جنوبي لبنان  
مقابل مساعدات مالية وفنية مغرية .

وتؤكد وثائق البطريركية المارونية في بركي ، ان الحويك رفض  
هذا الطلب وتمسك بوجهة النظر الفرنسية القائلة بوجوب توسيع  
المتصرفية الى الدولة التي أعلنت باسم لبنان الكبير عام ١٩٢٠ .  
فسارعت الحركة الصهيونية للضغط على الامير فيصل الذي وقع في  
باريس الاتفاقية الشهيرة المعروفة باسم فيصل — كليمنصو التي  
تعترف بالتواجد الصهيوني في فلسطين . كما ركزت الحركة  
الصهيونية الضغط على القادة الفرنسيين من أجل دفعهم للاقرار  
بحقوق واضحة في اراضي الحولة كأراض فلسطينية . وقد تم لهم  
ذلك . كما شدد الصهاينة الضغط للسيطرة على مياه الليطاني  
والحاصباني واليرموك . وقد صرح روبير دوكيه ، الملقب بمهندس  
السياسة الفرنسية في سوريا ولبنان ، بقوله « برأيي الخاص ليس



للسهيونية اقل داع للتذمر بعد أن أعطتهم لجنة تقويم الحدود بين الانتدابيين البريطانيين والفرنسي كامل أراضي الحولة التي هي اخصب الاراضي في المنطقة . والحولة ذاتها ، جزء اساسي من دولة لبنان الكبير . وقد راجعت السيد كليمنصو كي لا يحرم لبنان من أراضي الحولة . . . » وهكذا بدأ الضغط الصهيوني على القادة الفرنسيين يعطي ثماره الكثيرة وبدأت ادارة الانتداب الفرنسي تنسق مع مثيلتها البريطانية من أجل تسهيل أعمال الحركة الاستيطانية الصهيونية في فلسطين والمناطق المجاورة لها ، ومنها لبنان بأكمله ، بعد أن أوكلت حماية سوريا ولبنان الى الانتداب الفرنسي فحولوا تلك الحماية للصهيانة على حساب العرب في كافة أرجائهم ، خاصة الشرقية منها .

### انعكاس التجزئة الاستعمارية على جنوب لبنان

سنحاول ابراز بعض السمات التاريخية لتطور جنوب لبنان في اطار تلك التجزئة ، من هذه السمات :

— التوحيد القسري لجبل عامل وباقي الاقضية والمدن المضمومة مع متصرفية جبل لبنان في اطار دولة لبنان الكبير . وكان رد فعل الجنوبيين عنيفا ضد هذا التوحيد . لكن جبل عامل لم ينفرد بمثل هذا الرد . فعصابات جبل عامل ضد الانتداب الفرنسي كانت تجد شبيها لها في عصابات عكار والضنية والبقاع واللاذقية وعرب الحولة والجولان وغيرها . كما ان المؤتمرات الاسلامية التي عقدت في جبل عامل والجنوب عامة كانت روافد للمؤتمرات الاسلامية العامة الرافضة للفرنسيين على امتداد مناطق الانتداب .

— وقد رافق ذلك التوحيد القسري لجبل عامل في دولة لبنان الكبير تبدل اقتصادي في علاقات هذا الجبل التاريخية بفلسطين . فقد كانت تلك العلاقات في اساس اقتصاد جبل عامل قبل فرض الانتداب ، واستمرت خلاله طيلة فترة ما بين الحربين لتنتقطع نهائيا بعد اغتصاب فلسطين وقيام دولة اسرائيل . وكانت نتائج ذلك الارتداد الاقتصادي لجبل عامل عن سوقه الطبيعية في فلسطين باتجاه أسواق بيروت ، بمثابة ادخال جبل عامل في اطار العلاقات التبعية للسوق الرأسمالية المحلية والعالمية . فأدخلت انواع مغينة من المزروعات السلعية المعدة للتصدير خاصة التبغ ، لتزيد في تأزم الوضع المعيشي لسكان جبل عامل وتخصصهم أكثر فأكثر لنهب شركة الريجي بعد انتشار زراعة التبغ كأهم المزروعات السلعية في جبل عامل .

وكان رد فعل العاملين عنيفا . وقد عبروا عن سخطهم الدائم ضد موظفي شركة الريجي وقوى القمع التي تحميها . كما عبروا عن ارتباطهم الثابت مع فلسطين في كل المناسبات التي استطاعوا خلالها اظهار مشاعرهم تجاه الخطر الصهيوني الداهم . فابان انتفاضة ١٩٣٦ تحولت مدن جبل عامل الرئيسية ، خاصة بنت جبيل (٤) ، الى مراكز ثابتة لدعم الثوار الفلسطينيين ومدهم بالسلاح والذخيرة والمؤن والرجال كما تحول جبل عامل عام ١٩٤٨ الى مراكز متقدمة للدفاع عن القضية الفلسطينية ومركز تموين وتجميع للقوى العربية المقاتلة ضد قيام دولة اسرائيل . فالترابط المصري بين جبل عامل وفلسطين كان دوما بمثابة الشعور بالخطر المشترك والداهم الذي تشكله الحركة الصهيونية في فلسطين على المشرق العربي بأسره وبشكل خاص على المناطق القريبة من فلسطين .

— نزع ملكية الجنوبيين العقارية في الحولة وتحويلها الى الحركة الصهيونية العالمية تحت ستار قوانين الانتداب وتقويم الحدود ومعاهدات حسن الجوار . فمنطقة سهل الحولة كانت تتبع ،



ستار انهم لم يقدموا الاوراق الثبوتية اللازمة عنها ابان فترة التحديد والمساحة فسجلت هذه الاراضي باسم املاك الدولة التي انتقلت بكاملها للحركة الصهيونية في فلسطين .

يتضح من ذلك ان سياسة الانتدابين الفرنسي والانكليزي كانت تتكامل لخدمة الحركة الصهيونية العالمية وتمارس أساليب متشابهة من حيث تعميق ركائز التجزئة في المشرق العربي على مختلف مستويات تلك التجزئة ، الطائفية منها والعرقية وترسيخ هيمنة زعماء البدو وكبار الملاكين العقاريين واقامة الكيانات السياسية في هذا المشرق .

وفي اطار تثبيت هذه التجزئة سعت ادارة الانتدابين الى ابراز التمايز بين الطوائف واعطاء الحرية المذهبية لكل طائفة بادارة شؤونها بنفسها على قاعدة نظام الملل العثماني . وكان الهدف من ذلك تعميق الهوة بين الطوائف المشرقية ومحاولة التودد الى زعاماتها الدينية والمدنية على السواء . وفي هذا الاطار صدر قرار للمفوض السامي عام ١٩٢٦ يعترف بالمذهب الجعفري الذي يبرز الطائفة الشيعية كطائفة مستقلة لها حرية تشريعاتها المذهبية . كما صدرت تشريعات مماثلة ترسخ تمايز الطوائف اللبنانية بعضها عن بعض تحت ستار استقلاليتها المذهبية وحرية ادارة شؤونها وأوقافها بنفسها . وجاءت قوانين المساحة والتحديد ترسخ هيمنة كبار الملاكين في جميع مناطق الانتدابين الفرنسي والانكليزي ، ومنها جبل عامل ، بحيث استمر هؤلاء الملاكون كأسياد حقيقيين للارياض على امتداد المشرق العربي وذلك على حساب دمار الفلاحين وخرابهم الاقتصادي ، وحرمانهم من أية ملكيات عقارية كفيلة باعاشتهم . واستمرت كل اشكال المحاصصة والمغارسة والمراعبة والشركة وغيرها من انماط المزارعة طيلة عهد الانتداب كما تعزز الى جانبها نمط ايجار الاراضي وضمائها الموسمي وازداد بروز العمل المأجور . وكانت نتيجة حرمان الفلاحين من أراضيهم وتحويلهم الى اجراء

بأغلبية أراضيها حتى عام ١٩٢٣ ، الى قائممقامية مرجعيون . وكان هذا السهل يسمى « جورة الذهب » ويمتلك قسما هاما من أراضيها الزراعية الخصبة ملاكون من كبار العائلات الغنية البيروتية ، كما يمتلك متنفذو جبل عامل مساحة واسعة فيه بالإضافة الى بعض الملكيات الصغيرة الفلاحية . وبموجب اتفاقية حسن الجوار عام ١٩٢٣ بين الانتدابين الفرنسي والانكليزي ، ولقاء تجديد امتياز تجفيف مستنقعات الحولة لشركة فرنسية بدأت التجفيف قبيل الحرب العالمية الاولى ، انتقلت سبع عشرة قرية جنوبية الى الانتداب البريطاني وبالتالي الى الحركة الصهيونية العالمية منذ مطلع ١٩٢٤ ، وهذه القرى هي : المطلة ، النخيلة ، الصالحية ، الناعمة ، الخالصة ، الزوية ، المنصورة ، الذوق الفوقاني ، الذوق التحتاني ، خان الدوير ، الدوارة ، الخصاص ، العباسية ، دفنة ، اللزاة ، هونين ، ابل القمح . كما تمت السيطرة اللاحقة على قرى : شوكة ، أقرت ، حانوتة ، معسولة ، المالكية ، الدحرجة ، الجردية ، كفر برعم . (٥)

واستنادا الى شهادة أصحاب الإملاك الذين لا زالوا يحتفظون بأوراقهم الثبوتية للملكياتهم في تلك المناطق ، يورد الاستاذ سلام الراسي مساحة الاراضي التي اغتصبتها الحركة الصهيونية من املاك سكان جبل عامل في سهل الحولة ، وخلال مرحلة ما بين الحربين العالميتين فقط ، توضح هذه الارقام ما يلي (٦) :

ان سكان مرجعيون فقدوا ١٤٢١١ دونما ، وكفركلا ٢٠٠٧ دونمات ، ودير ميماس ١٠٨٧ دونما ، وحاصبيا ٤٤٤١ دونما ، والقلبيعة ٢١٠ دونمات ، والطيبة ٤١٩ ، وسكان القرى الاخرى المتفرقة ٢٠٠ دونم . أي أن سكان جبل عامل والمنطقة المحيطة بسهل الحولة فقدوا ملكية حوالي ٢٣ ألف دونم من الاراضي الزراعية الخصبة التي كانوا يمتلكونها ملكا خاصا تضاف اليها مساحات شاسعة من الاراضي التي كانت لكبار الملاكين اللبنانيين هناك باسم ملكيات التصرف والتي حرمتهم منها ادارة الانتداب البريطاني تحت



او مالكين صغار للمكيات غير كافية ، وترسيخ هيمنة كبار الملاكين وازلامهم على الارياض المشرقية بكاملها ان اضطر العديد من الفلاحين الى النزوح نحو المدن والهجرة الى الخارج بسبب كثرة الضرائب وسوء الحالة الاقتصادية وكساد الانتاج وتحكم الملاكين والرجعي وغياب السياسة الزراعية للدولة وحضورها الدائم عبر اجهزة القمع . حتى ان المدارس الرسمية القليلة التي انشئت خلال هذه الفترة جاءت وزارة اميل اده الشهيرة لعام ١٩٢٩ لتفلق عددا كبيرا منها تحت ستار توفير النفقات وتدني المستوى التعليمي وذلك دعما لسيطرة التعليم الخاص على التعليم الرسمي (٧) . فأغلقت الوزارة العتيقة ١١١ مدرسة دفعة واحدة كان نصيب جبل عامل منها ٥٥ مدرسة . وقد علقت « العرفان » على هذا الاغلاق تحت عنوان : « وزارة الانتقاذ ؟ والمعارف » تقول : « اخذ الاستاذ اده معوله وطفق ينسف في جميع الدوائر الصغيرة بدون رحمة ولا شفقة . وما كان يهمن الامر كثيرا لو لم يلغ ١١١ مدرسة و ١٧١ معلما جلهم من المسلمين . وقد اصاب جبل عامل من هذه العملية الجراحية الغاء ٥٥ مدرسة مع انه محتاج جدا لزيادة مثلها . وقد عريت القرى من المدارس حتى امهاتها كجويا ، وقانا ، وشحور ، والطيبة ، وحراروف ، وكفرحتى وغيرها . واشد الما من الغاء مدارس الذكور الفناء مدارس الاناث من النبطية والغازية وجباع وصور ... » (٨)

فانفجرت النقمة الشعبية ضد هذه الوزارة لكن اجهزة الانتداب امتصت النقمة باقالة الوزارة التي قيل ، انها الوزارة الوحيدة التي سقطت في البرلمان طيلة عهدي الانتداب والاستقلال . فالوزارة اكملت المهمة الموكولة اليها فاقالتها المفوضية العليا في محاولة لامتصاص النقمة واكمال ضرب التعليم الرسمي ، خاصة في جبل عامل ، ضربة الية لسنوات طويلة . وحتى عودة المدارس في الفترة اللاحقة كانت مشروطة بتحمل الاهالي قسما من التكاليف ونفقات البناء والتجهيز وغيرها قبل السماح بعودة المدرسة والمدرسين . اما لماذا نال جبل عامل خاصة والجنوب عامة ذلك

النصيب الوافر من حكومة « الانتقاذ » — كما سميت حكومة اده تهكما ، اي انتقاذ الجنوبيين من التعليم ، فيجد كامل تفسيره فسي سياسة الانتداب وحكوماته الرامية الى اقتلاع الجنوبي من ارضه تسهيلا للتوسع الاستيطاني الصهيوني الزاحف على الجنوب .

وسنحاول هنا تقديم بعض النماذج على هذه السياسة الانتدابية الفرنسية الداعمة للتوسع الاستيطاني الصهيوني .

في السابع والعشرين من نيسان ١٩٢٦ يكتب المفوض السامي دو جوفنيل رسالة مطولة الى رئيس الوزراء ، وزير الخارجية الفرنسية ارستيد بريان ، قائلا :

« تلقيت منذ زمن قصير زيارة السيد وايزمن ، اي الحركة الصهيونية ممثلة بشخصه . جاء وايزمن يسألني ما اذا كنت عازما على منع نشاط الحركة الصهيونية في سوريا . فأجبته ان قضية المنع تتجاوزني الى الحكومة الفرنسية لكنني لم أخف امامه تعاطفي مع الحركة الصهيونية ، فقبل مجيئي الى بيروت كنت معاديا للصهيونية ، لكنني بعد أن تعرفت على أعمالها المموسة بت الان صهيونيا أو على الأقل أحسد المفوض السامي البريطاني على وجودها في فلسطين . الصهاينة هم أعداء العرب بالتأكيد ، لكنهم أعداء لفترة قصيرة مرحلية نظرا لما يحملونه من مكاسب الى فلسطين ... الانتداب البريطاني قام بمشاريع هناك بلغت نفقاتها ٤ ملايين استرلينية لكن الحركة الصهيونية أنفقت بالمقابل ١٥ مليون استرلينية في فلسطين . وتجدر الإشارة الى أن هذه المنطقة تحتاج الى الرساميل واليد العاملة والتكنيك . والصهاينة يملكون هذه العناصر الثلاثة مجتمعة . وفي حين نجد أنفسنا مضطرين لمساندة المسيحيين ودعم نشاطهم فان الصهاينة يدعمون أنفسهم بأنفسهم . الرأسمال الذي يملكونه جريء جدا ويفامر في كافة المجالات بينما الثروات المحلية لا توظف الا في الربا والفوائد الفاحشة .. وقد شرخت للسيد وايزمن



رفض الانتداب الفرنسي السماح للحركة بالسيطرة على سوريا ولبنان لكن ادارة الانتداب على استعداد لتسهيل اقامة المستوطنات الصهيونية في المنطقة الممتدة من حلب حتى حمص ودمشق خاصة منطقة تدمر التي تتحول الى جنائن بفضل الرساميل واليد العاملة الزراعية . ونبهته الى أن عقيرة الزعماء العرب سترتفع بالصياح والصراخ لفترة قصيرة فقط لان هؤلاء الزعماء يفضلون مصالحهم الخاصة دوما وسرعان ما يؤيدون المشروع الذي يؤدي الى زيادة غناهم ... اخيرا أقول بأن السيد وايزمن قد يزور باريس قريبا وآمل ألا تخيب الحكومة الفرنسية امله باقامة هذا المشروع . « (٩)

وتنهال البرقيات والاجوبة والاستفسارات بين المفوضية العليا والخارجية الفرنسية لاستطلاع خلفيات هذا المشروع ومدى فائدته للرساميل الفرنسية (١٠) . لكن الثورة السورية الكبرى المندلعة في جبل العرب جعلت الفرنسيين يحجمون عن السماح للحركة الصهيونية باقامة مستوطناتها في المنطقة المشار اليها واعدن وايزمن بتحقيق المشروع في فترة لاحقة شرط تأمين الرساميل والخبرة التقنية واليد العامة الصهيونية . وبالفعل قام وايزمن بجولة واسعة في الولايات المتحدة الاميركية امنت للحركة الصهيونية تبرعات بلغت ٥ ملايين دولار أي ٦٦ بالمائة من المساعدات التي وردت الى الحركة انذاك كما استطاع ابرام اتفاق مع حكومة الولايات المتحدة بالحصول على جهاز كامل من خيرة الخبراء الاميركيين لارساله الى فلسطين وسوريا . وبدأ الفريق بدراسة «المناطق المجاورة لاراضي روتشيلد في فلسطين» (١١) كما تسميها التقارير الفرنسية . وكان الفرنسيون يرغبون فعلا بالاستفادة الكاملة من رساميل الحركة الصهيونية في مناطق انتدابهم لكنهم كانوا يخشون زيادة حدة الانفجار في سوريا . وكانت المنظمات الصهيونية تجمع التبرعات للصندوق القومي اليهودي بمباركة كاملة من الحكومة الفرنسية .

وكان الزعيم الفرنسي بوانكاريه يصرح قائلا : « لقد كان لي الشرف ، وبمناسبات عدة ، أن أعلن تعاطفي الكامل مع الحركة

الصهيونية . فليس هناك فرنسي واحد يعارض هذه الحركة ، والسعي لتحقيق الوطن القومي اليهودي في فلسطين سيجد الدعم الكامل من جميع البلدان المشبعة بالحرية ، وعلى رأسها فرنسا ... » (١٢)

وفي اطار هذه السياسة الفرنسية الداعمة للنشاط الصهيوني كانت تقارير المفوضية العليا تؤكد على شراء الصهاينة لاراض واسعة في جنوبي دمشق وفي دولة لبنان الكبير ، خاصة في منطقة الجنوب منذ عام ١٩٢٤ . « (١٣)

ويسأل رئيس الوزراء الفرنسي قنصله في القدس ما اذا كانت المنظمة الصهيونية تسعى حاليا لشراء المزيد من الاراضي في المناطق الخاصة للانتداب الفرنسي . ويأتيه جواب القنصل قائلا : « المنظمات الصهيونية تسعى بالتأكيد للسيطرة على صيدا وصور اذ تعتقد انها كانتا تابعتين لمملكة اسرائيل القديمة وأن يهوه أعطاها لشعبه المختار . لكن اليهود لا زالوا يشكلون نسبة ضئيلة من السكان ولا يسيطرون الا على ٥ - ٦ بالمائة من الاراضي القابلة للزراعة في فلسطين . لذا فمن المؤكد أن توجههم الحالي سيركز على فلسطين فقط . ويلاحظ أن الرساميل الصهيونية تصرف في منطقة الجليل لان التعليمات الصهيونية العليا صارمة في هذا المجال . ويخطط الصندوق القومي اليهودي لابتلاع كامل الارض الفلسطينية ثم يتجه لابتلاع سهول الاردن حيث الذكريات التاريخية اليهودية من جهة ، وحيث الاراضي الخصبة من جهة أخرى . وهم يشترون هذه الاراضي عبر وسطاء لهم ، كما يشترون اراضي في جنوب لبنان بواسطة الزعماء المحليين » (١٤) . فقضية السيطرة على جنوبي لبنان قضية وقت . وبالفعل يرسل المسؤول عن الصندوق القومي اليهودي الى القنصل الفرنسي في القدس في ١١ كانون الاول ١٩٢٩ مذكرا بتفاهم دوجوفنيل مع وايزمن وبأن «فلسطين التاريخية تضم اراضي واقعة تحت الانتداب الفرنسي . وهذه الاراضي تصل الى حدود دمشق



وصيدا وان هاتين المدينتين تتعان حتما ضمن الخارطة التاريخية لفلسطين اليهودية وهي الخارطة التي نشرها البروفسور الصهيوني « براور » أمام طلابه في المدارس العبرية من أجل تنشئة جيل يهودي يطمع بتوسيع حدود الوطن القومي اليهودي على حساب الحدود اللبنانية والفلسطينية . كما أعلن الصهاينة عن مسابقة عالمية للشبيبة اليهودية تعطي أكبر جائزة للشباب اليهودي الذي يزرع العلم الصهيوني على أعلى قمم جبال حرمون .

ويضيف تعليق القنصل الفرنسي على الرسالة الصهيونية التي وجهها بدوره الى رئيس الوزراء الفرنسي قائلا : « لا بد من التذكير هنا أن المحادثات الفرنسية - البريطانية في لندن حول تحديد مناطق الانتداب »، قد شهدت مناقشات حادة بسبب اصرار المنظمة الصهيونية العالمية عام ١٩٢٣ على اعطائها منطقة الحولة زاعمة انها أرض فلسطينية وان الحولة كانت احدى أبرز ركائز مملكة اسرائيل القديمة التي اتسعت حتى تل القاضي القريب من بانياس . فالتنازل أمام الحركة الصهيونية انذاك دفعها الى المزيد من اظهار الاطماع بالاراضي المجاورة خاصة جنوبي لبنان . فالمنظمة تريد ابتلاع هذا الجنوب بكامله وادخاله ضمن الاراضي الفلسطينية وهم يتسربون اليه بكافة السبل ويشترون اراضيه بالاتفاق مع بعض زعمائهم المحليين الذين تحولوا الى سماسرة لبيع اراضي الجنوب . ومحاولات الحركة الصهيونية شراء الجنوب والتوسع في مناطق الانتداب الفرنسي لا تحظى بدعم المفوضية العليا لكن المنظمة الصهيونية تسعى بكل الوسائل لخلق الصعوبات أمام الانتداب الفرنسي واجبار ادارته على تسهيل مهماتها التوسعية . . « (١٥)

قد تطول استشهاداتنا كثيرا لاثبات الاطماع الصهيونية التوسعية في سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن ومباركة الانتداب الفرنسي والبريطاني لهما والدعم المادي الكبير الذي محضته الولايات المتحدة الاميركية لهذه الاطماع التوسعية . وقد ساهم

الزعماء المحليون ، سماسرة الاراضي ، في تسهيل تلك المهمات التوسعية الاسرائيلية . فقد تحول هؤلاء الزعماء الى جلادين للفلاحين يجرمونهم كل امكانيات الصمود والتصدي للمخطط الصهيوني ، فتناقصت قوى القمع الداخلي والخارجي لتصب في خدمة التوسع الاستيطاني الصهيوني وضرب القوى البشرية المناوئة له واجبارها على النزوح والهجرة .

وبالرغم من عشرات المظاهرات الدموية العنيفة ضد شركة الريجي الاحتكارية وضد موظفي ضرائب الانتداب وضد كبار الملاكين في مختلف أنحاء جبل عامل وقتل أحد كبار ملاكي بليدا عام ١٩٣٩ الذي قتله فلاحوه بالمذاري والرفوش والمعالول، كانت بوادر النزوح والهجرة تشتد منذ النصف الثاني من العقد الرابع للقرن العشرين . وكانت هجرة الجنوبيين كثيفة الى افريقيا بشكل خاص . كما كان نزوحهم كثيفا الى بيروت وضواحيها حتى شكلوا ٢٢ بالمئة من السكان فيها عام ١٩٧٠ مقابل ٨ بالمئة لنزوح البقاعيين و٤ بالمئة لنزوح الشماليين . وتجدر الإشارة الى أن الاعتداءات الاسرائيلية المتكررة لعبت دورا أساسيا في زيادة نزوح الجنوبيين وهجرتهم الكثيفة . لكن جذور هاتين الظاهرتين تعود الى سياسة الدولة الانتدابية قبل قيام اسرائيل عبر تسلط كبار الملاكين والريجي على الجنوبيين . يضاف الى ذلك ان عملية احباط سياسي ونفسي كان يقوم بها الزعماء الوجوديون ضد الجماهير الوجودية في سوريا ولبنان . ولكن هذه الجماهير بقيت متمسكة بالوحدة السورية - العربية وتنشبت بالارض وتدافع عنها حتى الرمح الاخير ، في حين كان العديد من دعاة الوحدة يعززون روابطهم مع ادارة الانتداب تحت ستار « النضال ضد الانتداب من الداخل » أو « مبدأ خذ وطالب » . ومقابل رفض الجماهير الوجودية لدولة لبنان الكبير وكافة مؤسساتها كان أصحاب الزعامة من الوجوديين يسرون في ركاب الانتداب ويعترفون بالكيان السياسي اللبناني مع الصاق وجه عربي له فيصبح « لبنان ذو وجه عربي » هو عروبة الميثاق الطائفي لعام ١٩٤٣ اي العروبة الاقتصادية أو الحد الأدنى من العروبة . (١٦)



وقد أدركت هذه الجماهير الوجودية ، على امتداد الساحتين السورية واللبنانية ، ان بقاء الكيان الطائفي في لبنان مرهون بموافقة قوى قومية عربية وليس قوى لبنانية محسب . وقد عرفت هذه الجماهير ، بحسبها العفوي السليم ، ان القيادات الوجودية السورية واللبنانية تفاوض الفرنسيين على قاعدة الاعتراف الكامل بالكيان الطائفي اللبناني ولجم الحركة الوجودية التي ترفض الاعتراف به . وقد ظهرت هذه التوجهات السياسية بوضوح بعد عام ١٩٣٦ وذهب الوجوديين السوريين واللبنانيين الى باريس من أجل ابدال الانتداب بمعاهدة صداقة وتحالف مع فرنسا . فانفجرت المظاهرات العنيفة من عكار حتى جبل عامل مروراً بطرابلس وبيروت وصيدا تردد الهتاف التالي :

هاشم بك الاتاسي

بياريس فاكسر أو ناسي

أوعا تنسى مطلبنا

مطلبنا الوحدة السورية

ما تبيعوها بالكراسي

« وفجأة بعد عام ١٩٣٦ - يقول د. ذوقان قرقوط اي بعد توقيع مشروع المعاهدة السورية - الفرنسية واستلام الكتلة الوطنية الحكم في سوريا من بابه الى محرابه ، أطبق الصمت من الناحية الرسمية على مسألة « وحدة أراضي الساحل مع الداخل » في لبنان الكبير وحق تقرير المصير للبنان القديم ، « الصغير » ، وعلى اعتبار فلسطين جزءاً متما لسوريا ... » (١٧)

وبدأت مسيرة التخلي عن الشعارات الوجودية ليتعزز دور الكيانات السياسية العاجزة عن مواجهة الخطر الصهيوني الداهم . ولا زالت الضربات الصهيونية تنهال على المناطق القريبة من حدود هذا السرطان الاستيطاني المتوسع في ظل عجز عربي فاضح . فكان نصيب جبل عامل ، خلال أكثر من ثلث قرن على قيام إسرائيل ، الحصنة الكبرى من تلك الضربات الصهيونية المتلاحقة .

## ملاحظات ختامية حول

### خصوصية جبل عامل في اطار التجزئة الاستعمارية

#### للمشرق العربي

مهما قيل في تشابه التطور التاريخي للعديد من مناطق المشرق العربي في اطار التجزئة الاستعمارية ، فمن المؤكد أن هناك بعض الخصوصيات المحلية التي تندرج في الاطار العام لتلك التجزئة . وسنحاول هنا ابراز بعض تلك الخصوصيات على صعيد جبل عامل والجنوب اللبناني بشكل عام منها :

— الخصوصية الجغرافية أو الاقتراب الجغرافي لجبل عامل من مرتكز الحركة الصهيونية العالمية المتجسد في مشاريع استيطانية ترفع شعار « حدودك يا اسرائيل من الفرات الى النيل » وما يثيره هذا الشعور من انعكاسات هامة على مختلف القوى البشرية المحيطة باسرائيل خاصة أبان العجز العربي عن التصدي والمواجهة .

— خصوصية التسيب البشري والجغرافي لمناطق الجنوب أمام عدو استيطاني توسعي يهجر الانسان ويستولي على الارض بكافة الوسائل . وقد شكل جبل عامل خط التماس المباشر بين حدود الوطن القومي اليهودي المتسع دوماً منذ اعلان وعد بلفور ، وبين نظام سياسي لبناني يرفع شعار « قوة لبنان في ضعفه » و « حماية الشعب اللبناني والاراضي اللبنانية بالصدقات الدولية » . وكانت النتيجة الطبيعية لمثل هذه المجابهة غير المتكافئة مزيداً من النزوح والهجرة للجنوب ، شعبا وأرضاً ، بحيث بات الجنوب امتداد الجرح في جسد الوطن المسيب في ظروف استبدال الفعل الثوري العربي باللفظ الثوري طريقاً لانقاذ الجنوب ولبنان والمصير القومي العربي كله .



— خصوصية الزمن الطائفي للكيان السياسي اللبناني حيث يصبح الانسان مجرد رقم يضاف الى خانة احدى الطوائف ، وحيث تصبح الارض الوطنية مجرد اتساع لرقعة سكن طائفي تبدي الطوائف الاخرى استعدادها الدائم للتخلي عنها ، شعبا وأرضا ، انقاذا للصيغة الطائفية — الطبقة لهذا الكيان الذي ولد مهددا في توازناته الاساسية . وهذه الخصوصية حملت في طياتها امكانيات موضوعية لحرب المغنم بين زعماء الطوائف اللبنانية وسقوط أبناء الطوائف في عدااء مرير فيما بينهم . وقد تصالحت بعض الزعامات الطائفية مع العدو الصهيوني عندما اعتبرته منقذا لزعامتها المنهارة وجرت معها جماهيرها الفلاحية الطائفية في ظل انعدام الديمقراطية انعدامها كاملا على قاعدة نمط انتاج يسمح للزعيم أن يكون القائد والجلاد والناطق الرسمي باسم جماهير مغلوبة على أمرها .

وهذه الخصوصية الطائفية — الطبقة التي تنسحب على امتداد الساحة اللبنانية برزت أكثر حدة في الجنوب اللبناني حيث ارتبطت بعض الطوائف ، قيادة وجماهير ، بالعدو الصهيوني المتواجد في الجنوب والذي يخطط منذ زمن بعيد لابتلاعه وتهجير سكانه . ولم يبق التحالف مع هذا العدو الصهيوني حكرا على زعامات طائفية واحدة بل تعداه الى زعماء آخرين من الذين وجدوا خطوطا متعددة لاقامة مثل ذلك التحالف بعد أن تحول بعضهم الى سباسة لبيع أراضي الجنوب . فعدااء هذه الزعامات الطائفية — الطبقة لجماهيرها كان المدخل الطبيعي للتحالف مع قوى الانتداب الفرنسي او الانتداب الانكليزي وبالتالي للحركة الصهيونية ، حفاظا على مواقعها المنهارة ومحاولة لتأبيد سيطرتها الطبقة على جماهيرها الفلاحية عبر اجهزة السلطة وشبكة واسعة من الازلام والمحاسيب وفرق القمع والارهاب .

لقد قدمنا جبل عامل كنموذج لما آل اليه مصير منطقة عربية في اطار التجزئة الاستعمارية للمشرق العربي والوعد باقامة وطن قومي

يهودي في فلسطين . ويبدو بوضوح أن تعزيز هذا الوطن القومي الصهيوني يبقى القاعدة الثابتة لفهم كل أسباب التجزئة الكيانية والطائفية في المشرق العربي . فالتجزئة وحدها تضمن القوى الاستعمارية نمو التوسع الاستيطاني الصهيوني الهادف الى اقامة اسرائيل الكبرى من الفرات الى النيل . وخصوصية هذه المرحلة أن المشاريع الصهيونية في القرن التاسع عشر بدأت تتجسد في حقائق ملموسة على أرض الواقع العربي منذ مطلع هذا القرن . لذا يمكن التأكيد أن قضية جبل عامل لم تكن قضية خاصة بل جزء أساسي من المشكلة الرئيسية التي بنيت على قاعدة التجزئة الاستعمارية للمشرق العربي وادخل هذه التجزئة في عمق الحياة اليومية لهذا المشرق ، ابتداء من فلسطين حتى حدود اليمن والاسكندرون .

واذا كانت ركائز هذه التجزئة متنوعة منها السياسية والعرقية والطائفية ومشاكل البدو ، فمما لا شك فيه أن الكيانات السياسية لا زالت أكثر ركائز التجزئة خطورة في المشرق العربي بعد أن اقيمت دويلات طائفية وعشائرية ومشیخات تقاس بعدد براميل النفط لا بعدد السكان — فهل يمثل هذه الفسيفساء السياسية تحارب الحركة الصهيونية واطماعها التوسعية ؟ .

ان جماهير جبل عامل خاصة ، وجماهير الجنوب عامة ، ككل الجماهير الوطنية على امتداد الساحة العربية ، كانت ولا زالت تتمسك بالوحدة العربية كرد وحيد قادر على الوقوف في وجه المشاريع الاستعمارية الجاري تنفيذها . فالقضية الوطنية في الجنوب اللبناني هي قضية قومية عربية بالدرجة الاولى لان مهمات التصدي للخطر الصهيوني هي مهمات قومية عربية شاملة يتطلب حلها تضافر كل الجهود العربية والاستفادة القصوى من دعم الحلفاء والاصدقاء في العالم .

ان التصدي لركائز التجزئة الاستعمارية التي بدأ تنفيذها منذ نهاية الحرب العالمية الاولى تقع في رأس مهمات أي نضال تحرري



وطني قومي عربي . وامكانية هذا التصدي باتت الان ، أكثر من اي وقت مضى ، متوفرة الى حد بعيد . فقد احتضن الجنوب ، شعبا وارضا ، الحركة الثورية اللبنانية - الفلسطينية الاكثر اشراقا في تاريخ العرب الحديث والمعاصر . ومرد ذلك الى تمسك الجنوبي بأرضه ودفاعه المستميت عنها بالرغم من كل قوى القمع التي مارسها ضده زعماءه المحليون وأجهزة السلطة اللبنانية وعساكر الاحتلال الصهيوني . فالجنوبي يرفض أن يتحول لاجئا مشردا في الوقت الذي تحول فيه المشرّد الفلسطيني الى مقاتل ثوري يسعى لاستعادة حقه المغتصب وتقرير مصيره على أرض فلسطين بمختلف السبل والوسائل وعلى رأسها النضال الثوري المسلح . من هنا نؤكد على التلاقي الثوري بين الشعب الفلسطيني المشرّد من أرضه والشعب اللبناني المهدد على أرضه ، والشعب العربي كله المهدد بالتوسع الاستيطاني الصهيوني في زمن الارتباط العضوي بين الصهيونية والامبريالية .

ان ترك جبل عامل يواجه مصيره بنفسه يتشابه تماما مع خيانة الانظمة العربية للقضية الفلسطينية عام ١٩٤٨ . واتساع رقعة الجرح مساهمة عملية في تحقيق الحلم الصهيوني الكبير من الفرات الى النيل . ويخطيء من يعتقد أن الاسلاك الشائكة ستتوقف عند حدود معينة . فقد ضاقت حدود لبنان كثيرا عن العشرة الاف وأربعماية كلم مربع المعلنة ، كما ضاقت حدود الاردن ومصر وسوريا بالإضافة الى ابتلاع فلسطين بكاملها وتشريد شعبها . ان كل الوثائق التاريخية تؤكد الاطماع الصهيونية في دنيا العرب منذ الاعلان الرسمي عن تطبيق مشاريع التجزئة في المشرق العربي . فخصوصية الكلام على جبل عامل في اطار تلك التجزئة تتضمن بالكامل سمات مشاريع التجزئة والعديد من سمات العمل العربي للرد الناجح ضدها . وهذا الرد يستند بالدرجة الاولى الى جماهير الجنوب المنظمة والمقاتلة وجعل كل الجماهير العربية جماهير جنوبية .

## الهوامش

- (١) محمد جابر ال صفا «تاريخ جبل عامل» - الدور الثالث - الفصل الاول - صفحة ١٦٣ وما يليها . بيروت - لا تاريخ .
- (٢) مسعود ضاهر « تاريخ لبنان الاجتماعي ١٩١٤ - ١٩٢٦ » بيروت ١٩٧٤ - الفصل الاول . صفحات ٤٢-١٩ .
- (٣) حسان الحلاق « موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧ - ١٩٠٩ » . بيروت ١٩٧٨ صفحات ١٧٢ - ١٩٠ .
- (٤) مصطفى بزي « تطور المجتمع في بنت جبيل بين الحربين العالميتين » . اطروحة ماجستير في التاريخ غير منشورة - كلية الاداب الجامعة اللبنانية - صفحات ٦٤-٧٦ .
- (٥) «تاريخ لبنان الاجتماعي» - صفحة ٨٥ .
- (٦) سلام الراسي « لثلا تضيع » بيروت ١٩٧٢ - صفحة ٦٥ .
- (٧) « تاريخ لبنان الاجتماعي » الباب الثاني - الفصل الرابع - «التعليم الخاص يهيمن على التعليم الرسمي» - صفحات ١٥٩ - ١٨٨ .
- (٨) مجلة « العرفان » - المجلد ١٩ - الجزء الاول - كانون الثاني ١٩٣٠ - مقالة « وزارة الانقاذ ؟ والمعارف » - صفحة ٧٠ .
- (٩) وثائق الارشيف في الخارجية الفرنسية - المجلد ٢٩ - الوثيقة ٢٩٣ - صفحات ٣٠-٣٣ .
- (١٠) الوثائق الفرنسية - المجلد ٢٩ - البرقيات رقم ٢٧٢ - ٢٧٤ - ٢٧٥ - ٣٠٦ - ٣٠٧ - واجوبتها - ايار ١٩٢٦ - صفحات ٣٥-٦٥ .
- (١١) الوثائق الفرنسية - المجلد ٢٩ - صفحة ١١٣ وما يليها .
- (١٢) المصدر السابق - تراجع تصريحات الزعماء الفرنسيين في المجلدين ٢٨ و ٢٩ لاعوام ١٩٢٤ - ١٩٢٦ . وتصريح بوانكاريه المشار اليه مثبت في المجلد ٢٨ ص ٢٤٧ .



- (١٣) الوثائق الفرنسية - المجلد ٢٨ - رسالة المفوض السامي ويغان في ٢٧ ايلول ١٩٢٤ والجواب عليها في ١٤ تشرين الاول ١٩٢٤ . صفحات ٨٥ - ٨٧ .
- (١٤) الوثائق الفرنسية - المجلد ٢٨ - الوثيقة ٣٦ تاريخ ٢٩ ايار ١٩٢٥ - صفحات ٢٠٠ - ٢٠١ .
- (١٥) الوثائق الفرنسية - المجلد ٢٩ - صفحات ٢٧٨ - ٢٨١ .
- (١٦) مسعود ضاهر « لبنان : الاستقلال ، الميثاق والصيغة » بيروت ١٩٧٧ - فصل « بين عروبة الذات وعروبة المصلحة » . صفحات ٢٩٧ - ٣٢٤ .
- (١٧) ذوقان قرقوط « المشرق العربي في مواجهة الاستعمار » - القاهرة ١٩٧٧ - المقدمة - صفحة ٨ .

## الجنوب اللبناني برعاية الاستقلال

بقلم الاستاذ سليمان نقي الدين

لا يمكن صوغ وقائع متنافرة متناثرة لاحداث تاريخية تغطي حوالي نصف قرن من الزمن دون ضمنيّات مجردة ، تشكل النهج الموجه ، او قانون الوجهة التي تسري كالنسخ داخلها .

واستبطان تاريخ الجنوب لا بد انه مندرج في سياق العلاقات التاريخية - الاجتماعية التي تخترق جميع التفاصيل وتعطيها لحياتها وتجعل من نسيجها العام وترابطها مصدر الوعي بها .

لذا نتأثر بتاريخ الجنوب وواقعه خلال الاستقلال ضمن اللوحة العامة لتطور الرأسمالية اللبنانية التابعة للامبريالية مع ما يستتبعه ذلك من أشكال متعاقبة في المسار السياسي .

واذا شئنا استباقا أن نجمل القول في السمة الاساس لتحول نوعي عاشه الجنوب في المدى التاريخي المذكور لقلنا : انه انتقال من هامش الصفحة في التاريخ اللبناني الى قلبها . انه اتساع المساحة السياسية للجنوب في دائرة المسألتين : الوطنية - القومية ، والديمقراطية - الاجتماعية .

### في الاصول التاريخية القريبة :

واذا عدنا الى الاصول التاريخية القريبة ، فلعلنا نتبع أشكال الانقسام والالتحام للجنوب في الكيان اللبناني ، ليس انطلاقا من حجة



التجزئة الاستعمارية في أسس التكوين اللبناني ، بل من مستوى المجابهة مع مشاريع التجزئة الراهنة .

لقد ذهب الغزو الامبريالي لسوق « السلطنة » الى تدمير وحدتها .  
والى تقسيم شعوبها فيما بعد بما يلائم نوازع أسواق النهب وثبتت  
ركائز السيطرة عليها . لكن الحركة العربية الناهضة انذاك لم تكن  
تملك مقومات التوحيد . من هنا هذا الاستنتاج الثاقب لاحد الباحثين  
في تاريخ سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي يقول :

« انه لا يمكن الزعم أن مصالح الدول الأوروبية الكبرى لم تلعب  
دورا في التجزئة ... أو أن حق تقرير المصير الذاتي كان وراء هذه  
التقسيمات ، أو هذه التجزئة تتوافق مع الوحدات المنطقية أو الطبيعية  
في تلك المنطقة . »

ولكن اذا كان لا بد من مواجهة وقائع سنة ١٩١٩ بموضوعة  
فانه ينبغي القول انه لم يكن منتظرا قيام سلطة عربية قادرة على  
توحيد البلاد العربية المتنوعة والمتباعدة ضمن دولة واحدة . ولم  
يتوافر حس التلاحم السياسي — الذي يختلف عن التلاحم العاطفي —  
وكانت الولاءات المحلية والاقليمية أقوى بكثير من الولاء للعروبة  
الشاملة ... الى جانب أن مقاييس الحكم القديم ومقاييس المجتمع  
بل وكل نظرة الى الحكم والحياة ، كانت متباينة الى أبعد الحدود  
فيما بين المناطق المختلفة . وانه لم يبد أثر لفرد أو حاكم أو طبقة حاكمة  
قادرة ، وعلى أساس التقبل العام على اقامة ادارات اقليمية مقبولة  
وتوحيدها .

واذا كانت الدول الكبرى الغربية قد منعت وبصورة فعالة أية  
محاولة لتحويل هذا الحلم الى واقع مادي فانها من غير شك انقذت  
العرب من احراج خطر وفشل مؤكد . ( ستيفن هاملسي لونغريغ —  
ص ١٣٨ ) .

فالتجزئة لم ترسم بعناد بفعل الطاريء الخارجي ، الا انها

انزعت في التربة والمناخ الملائمين . واستمدت غذاءها من واقع  
اجتماعي — سياسي متفاوت التطور . ففي ظل أربعة قرون من  
السيطرة العثمانية نمت وترسخت وحدات مجتمعية اقليمية لها  
جذورها العربية الاسلامية البعيدة . ولم تستطع محاولات الإصلاح  
في منتصف القرن التاسع عشر الهادفة الى المركزة والتحديث أن  
تسقط الحدود التي رسمها هذا التطور . فبرغم جهود العديد من  
المثقفين العرب والمسلمين لتحديد وتمتين الرابطة الاسلامية بداية ،  
واحداث انبعاث نهضوي في مواجهة تحديات الغرب ، لم تفلح تلك  
الجهود التي من اعلامها الرواد : الكواكبي والامفاني وعبد  
وأرسلان . الخ ..

وبدا واضحا بفعل الوقائع أن الاستنجد بالوحدة الاسلامية هو  
الآخر عنصر انقسام بدليل ذاك التأويل المذهبي المستمر للإسلام  
كمعبر عن حركات اجتماعية وسياسية ، وظهور الوهابية والبهائية  
والمهدية وغيرها لتضاف الى الانشقاقات السالفة المعروفة ،  
كالشيعة والاسماعيلية والدرزية . الخ ..

كان التغفل الامبريالي الاقتصادي والثقافي عنصر المعاونة الاكبر  
على تماسك الاستقطاب الاقليمي والفئوي ، واستنفرت سياسة  
التتريك ، المتوسلة وحدة الجيش والابتزاز الضريبي وقمع القوميات  
والممل كل عوامل التفتيح الكامنة في جسم السلطنة المهترئ .  
وشكلت الحركات الديمقراطية المتعاقبة غير الموحدة عامل اجهاز  
آخر على مشاريع الوحدة وسقطت المنطقة كلها فريسة التمزيق  
الامبريالي .

ومنذ ذاك المنعطف في مواجهة التجزئة بدأ التاريخ النضالي  
الوحدوي معطى ايدولوجيا مرتكزا للتراث الثقافي والسيكولوجي ،  
اكثر منه المشروع الذي تحفزه قاعدة من المصالح الاجتماعية المادية  
المترابطة التي تشق طريقها الى التبلور عبر حواجز سياسية  
مصطنعة .



ولا زلنا حتى اليوم في حمأة الجدل حول مشروعية الوحدة العربية تاريخيا خارج الرابطة الإسلامية . جدال لا تطلقه أقلية لا إسلامية وحسب ، بل ومذاهب إسلامية أيضا تتوجس ريبة من المزج بين الإسلام والمذهب الغالب والعروبة .

وإذا كان من خطئ الرأي التقليل من أهمية الترابط الشعوري العربي ومن تيار العروبة السياسي ، إلا أنه من القصور أن لا نرى كيف أن النخب السياسية الحاكمة في العالم العربي فتوية اقليم المنشأ والمصالح والتوجهات . وبالتالي ليس كما مهملا سياق النضال في سبيل « الوحدة الوطنية » قطريا ، في خط مواز للنضال في سبيل انجذاب قومي أقوى . وما نعانیه في لبنان دليل ساطع على ضرورة ترابط المستويات المختلفة وتلازمها في النضال التحرري بين معركة الوطنية — القومية والديمقراطية — الاجتماعية — بل وفي ظروف التراجع للمد القومي الوجدوي اليوم وجب القول بأولوية النضال في سبيل « الوحدة الوطنية » قطريا لأنها هي المستهدفة في الهجوم الامبريالي الصهيوني .

من هنا لم يكن « برنامج الإصلاح السياسي للحركة الوطنية » سهما طائشا يخطيء مرماه في خضم النضال القومي . كما ليس في غلبة معركة الجنوب اليوم في الظاهر السياسي انقطاع عن المستويات السابقة أو اللاحقة لها .

ولسنا نجد دليلا أفضل يؤكد ما نزعّم ، من واقع بعض الاحزاب التقدمية العربية اليوم ، التي قايست معركة الديمقراطية بدعم صمود الانظمة الوطنية .

#### في مواكب العروبة :

ليس شاذًا عن الوجهة العامة اذا ، ان لم يحتل الجنوب دورا بارزا على المسرح السياسي منذ الثورة العربية . ولا يغير حقيقة

الامر ما عرفه جبل عامل بخلال عامي ١٩ و ٢٠ من حركات مقاومة للفرنسيين على شكل عصابات مسلحة ، حتى قيل ان عدد المشاركين بها بلغ سبعة الاف ثائر ، حسبما أوردت صحيفة « لسان الحال » الموالية للفرنسيين . وتحولت تلك الحركات الى اقتتال أهلي طائفي حيث انتظم عدد واسع من سكان القرى المسيحية في فرق الجيش الفرنسي . ونظم الفرنسيون حملات تأديبية لقمع تلك العصابات . واتخذت السلطات الفرنسية قرارات بالاعدام بحق عدد من المواطنين وبالنفي بحق عدد من الوجهاء الوطنيين وقادة الرأي . ★

وانعقد مؤتمر عاملي لاعيان الشيعة بدعوة من كامل بك الاسعد . في ٢٤ نيسان عام ١٩٢٠ حضره الشيخ أحمد رضا ، والشيخ سليمان ظاهر ، ومحمد جابر ، والحاج اسماعيل الخليل ، والشيخ عز الدين علي عز الدين ، ليقرر الانضمام الى الوحدة السورية والمزايدة بجلالة الملك فيصل ملكا على سوريا ورفض الدخول تحت حماية أو انتداب فرنسيين .

لقد انحاز المؤتمرين لوجهة بدت انها غالبية في أعقاب رسالة وجهها سمو الأمير فيصل بن الحسين الى كامل الاسعد يدعوه فيها لمهاجمة الترك وطردهم من السواحل بعد أن سيطر الحلفاء على القدس وجنوبي سوريا وانهزموا في فلسطين . وتصرف كامل الاسعد كممثل للحكومة الفيصلية الظاهرة .

كما لا يعدل كثيرا تذكر أن لهذا التيار العروبي جذورا لدى مثقفي جبل عامل الشيعة . إذ تألفت لجمعية الاتحاد والترقي فرع في النبطية سنة ١٩٠٨ م وفيه الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر .

★ يراجع خيرية قاسمية : الحكومة العربية في دمشق ص ١٩٢ . ووجيه كوثراني : الاتجاهات الاجتماعية ص ٢٣١ .



فعلى اثر نهاية الحرب العثمانية الروسية سنة ١٨٧٧ م وانتصار الروس انعقد في دمشق مؤتمر سري لبحث الشؤون العامة في « السلطنة » ومثل جبل عامل العالم السيد محمد الامين من شتقرا . والحاج علي عسيران من صيدا . والشيوخ علي الحر من جباج . وشبيب باشا الاسعد . واقر المؤتمر اختيار الامير عبد القادر الجزائري نزيل دمشق اميرا على سوريا ، ونقل القرار الى الامير ، احمد باشا الصلح الذي كان يمثل مسلمي الساحل . وكان المفتي العاملي محمد الامير « متطرفا في عرويته » كما يروي محمد جابر ال صفا في تاريخ جبل عامل .

لا يمكن اذا انكار نزوع مثقفي الشيعة العاملين العروبي ولا بدايات مبكرة لتلمسهم فكرة الدولة العربية او الاسلامية اللامركزية، او مطالبتهم باصلاح حال الدولة . وفي احدى خلفيات هذا الموقف صراع للشيعة قديم ضد السيطرة العثمانية المذهبية السنية التي كان لها سياسة منظمة في قمع الشيعة بخاصة بعد صراعها مع الصفويين في ايران منذ القرن السادس عشر ، ومن قبلها سياسة المماليك في القرن الرابع عشر الميلادي .

لكن هذا التيار لم يكن يستقطب بقوة جمهرة الشيعة . كما لم يكن يحتل موقعا متميزا في الحياة السياسية ، كالذي احتلته عاصمة الجنوب ( صيدا ) ومركز الايالة ( بيروت ) . حيث لعبت الاسرة « الصلحية » السنية دورا بارزا ومهما في الحركة الوطنية يعزز موقعها هذا ارتقاؤها السياسي في المدن الوازنة بالتاثير السياسي والثقافي والاقتصادي . مما جعل تلك المواقع تاريخيا طرفا التسوية المقابل مع دعاة الانعزال .

ومن هنا لاحظ كاتبنا « تاريخ ولاية بيروت » في مطلع هذا القرن عبر مشاهدتهما ومعاشيتهما الاحوال العامة للسكان ، ان الادب العاملي يكاد يخلو من الهم العام والقومي وتطفى عليه العنعنات المحلية والهموم الخاصة الى جانب السمة الدينية الطائفية الغالبة .

فقل « ليس في المتاولة عصبية قومية ، بل فيهم عصبية دينية » ★

ظل التيار العروبي يقاوم سياسة الانتداب بعد انكشاف نتائج اتفاقية سايكس - بيكو ووضع مقررات مؤتمر سان - ريمو موضع التطبيق .

وكشفت المقاومة العربية في لبنان في موازاة الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥ م عن تفاوت واسع في مدى انشداد الحركة الجماهيرية هنا الى النضال التحرري العربي وشعاراته الوجدانية التي تدور حول سوريا الكبرى . وابانت تلك الحركات مدى الارتباط القائم بين هذا التحرك والعلائق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بين كل منطقة من لبنان وطائفة وبين المحيط العربي .

ففي حين لجأت طرابلس وصيدا وبيروت والبقاع الى حركات عنف متواصلة ومعارضة لسياسة الانتداب مؤكدة ارتباطها بسوريا، شهد جبل عامل حركات مقاومة للفرنسيين في عام ١٩ و ٢٠ لكنها ما لبثت أن تراجعت فيما بعد .

ارتبطت الثورة السورية ارتباطا وثيقا بانتفاضات اقليم البلان ووادي العجم ووادي التيم . أي بذلك الجزء المحاذي لسوريا والمرتبط اقتصاديا بها وتشده اليها علائق اجتماعية ومذهبية . واستطاعت الثورة السورية أن تستقطب المسيحيين الارثوذكس جزئيا في بلاد الشقيف وتشكلت حكومة عربية في حاصبيا برئاسة نسيب غبريل . وحين امتدت حركة الثورة الى جنوب لبنان باتجاه بلاد بشارة مدفوعة بالاستدراج الفرنسي لها حيث نظم المستعمرون عصابات من المسيحيين في كوكبا ومرجعيون لمقاومة الثوار ، كان

★ ولاية بيروت - ص ١٧٢ . وكذلك يراجع الحركة الفكرية والادبية في جبل عامل - محمد كاظم مكي - منشورات دار الاندلس . ص ٨٤ ( طابع الادب واغراضه ) ٠٠ اما نسبة الاتجاه الديني في الادب العاملي فقد كانت مرتفعة جدا .



موقف جبل عامل يكاد يكون محايدا بمعصره الشيعي الاساسي .  
مما اضطر متعصب الاطرش قائد الحملة الى جنوب لبنان باتجاه  
مرجعيون عام ١٩٢٥ أن يبعث بكتاب الى أهالي مرجعيون وال عبد  
الله وأهل الخيام يعلمهم فيه بالحملة وأهدافها ويطلب اليهم المساعدة  
على وقف تعديات أبناء قراهم المرتبطين بالفرنسيين .

في حين انتظمت مجموعات الثوار في امتداد البقاع كله في سلك  
المقاومة الوطنية وأخذت تنظم صلتها بجبل حوران وثورته .

وفي عام ١٩٢٥ نظم المسلمون بدار جمعية المقاصد اجتماعا  
شهيرا بدعوة من المفتي وقرروا مطالبة السلطات الفرنسية الحاقهم  
بسوريا . كذلك فعل المجلس البلدي في بعلبك ومسلمو صيدا  
وبيروت وطرابلس . أما أهالي جبل عامل فكانوا أميل الى اعطائهم  
لونا من ألوان الحكم الذاتي على قاعدة اللامركزية ولم يكن مطلبهم  
الاتحاد بسوريا .

فلقد جاء في المضبطة التي أرسلوها للمفوض السامي ما يلي :  
« نحن أهالي جبل عامل منذ الحاقنا بلبنان الصغير ما زلنا نرى  
الغرم علينا والغنم له . ندفع الضرائب ولا ينفق علينا منها سوى  
القليل حتى نرى حقنا مهضوما معه . فلا نعطي من الوظائف ما  
نستحقه . ومعلوم أن هذا الاستئثار شديد على النفوس جدا .  
ولذلك نطلب من عميد الدولة ( المسيو دي جوفنيل ) فصلنا عن لبنان  
بإنشاء ادارة مستقلة تحت اشراف الدولة المنتدبة » .

ووقع هذه العريضة كل من : أحمد رضا — محمد التامر —  
راشد عسيران — حسين الدرويش — النائب نجيب عسيران —  
النائب فضل الفضل — علي جابر — سليمان مروة — علي عبد  
الله — خنجر عبد الله — اسماعيل خليل — محمد جابر — عبد  
الحسين — محمود الامين — السيد علي بدر الدين — أحمد حاج —  
سعيد صباح .

ولقد سجل يوسف الحكيم في مذكراته — بيروت ولبنان في عهد ال  
عثمان توجهها لدى الشيعة نحو الفرنسيين يقول :

« يتساءل المرء عن سبب التجاء المتأولة الجعفريين الى القنصلية  
الفرنسية ، عند الحاجة ، خلافا للسنيين الذين يرون في شخصية  
الحاكم العثماني ملاذهم الاوحد . ولعل السبب في ذلك يرجع الى أن  
الدولة العثمانية كانت حتى اعلان القانون الاساسي شديدة التمسك  
بمذهبها السني فتفضل السنيين على غيرهم من المذاهب الاخرى  
بينما تفتتح المراجع الفرنسية صدرها لكل من يلجأ اليها » (ص ١٢٤) .

أما الحديث عن الفبن في مضبطة جبل عامل ، فالانتداب ابقى  
على امتيازات الجبل بداية ، دون مساس ، معنيا اياه من الضرائب  
والرسوم ، في حين تشدد في الملحقات في استيفائها وفرض على التبغ  
نظاما احتكاريا شديد الوطأة وحصر ضمنا حق تولي الوظائف  
الادارية بخريجي معاهده ومدارسه التبشيرية حتى باتت حكرا على  
الطوائف المسيحية .

#### الارتباط بفلسطين :

كان الجنوبيون يعرفون حيفا أكثر مما يعرفون بيروت . وكانت  
الليرة الفلسطينية متداولة في الايدي أكثر من الليرة اللبنانية . وكانت  
فلسطين وثيقة الاتصال ليس بجبل عامل وحسب بل بالحياة  
الاقتصادية اللبنانية عامة .

حتى أواخر الثلاثينات ظلت السوق الفلسطينية احد أهم أسواق  
تصريف الانتاج الصناعي اللبناني . ففي عام ١٩٣٧ بلغت حصة  
فلسطين ما يكاد يوازي استيراد فرنسا وبريطانيا وأميركا مجتمعة .

وبلغ المصطافون الفلسطينيون بين أعوام ٣٦ و ٤٧ أعلى نسبة  
من المصطافين العرب .



وفي جبل عامل قامت صناعات حرفية كانت تعتمد أساسا السوق الفلسطينية كصناعة الاحذية في بنت جبيل والجلود في مشغرة . الخ . . . وقامت مدن داخلية شكلت نقطة التوسط التجاري مع فلسطين كأسواق النبطية وعديسة .

لذا كانت أحداث ٣٦ - ٣٧ أعمق أثرا على سكان الجنوب من ثورة ١٩٢٥ ، وبالتالي كانوا أكثر مشاركة بها تحملا لنتائجها .

وبرغم ما أصاب الوضع الاقتصادي من خلل في هذه الفترة وعدم دفع التجار الفلسطينيين ديونهم لمستحقيها اللبنانيين كما تذكر « صحيفة النهار » آنذاك ، فإن الجنوب لم يعرف انقطاعا حاسما عن فلسطين الا أثناء وبعد حرب ١٩٤٨ .

وفي أحداث ١٩٤٨ شكل الجنوب أحد أهم مساحات الحرب مع العدو الصهيوني وكان أحد أهم الجبهات للجيش العربية وتحديدًا فرق الانتقاذ السورية والمتطوعين العرب واللبنانيين .

والمعارك التي دارت على أرض الجنوب عام ٤٨ كانت أشد ما عرفته فلسطين من معارك كما يروي فوزي القاوقجي في مذكراته . ويروي قائد القوات في جنوب سوريا أن قسما مهما من العمليات الحربية كان يدور على أرض جنوب لبنان وقراه ومدنه حتى أن القوات الصهيونية اجتاحت عددا من هذه القرى وبقي قسم منها لتاريخه تحت احتلالها .

وسعى الاسرائيليون مذاك الى ضم قسم من جنوب لبنان فقاموا بترغيب الاهالي وترهيبهم في جبل عامل لطلب الانسلاخ عن لبنان والالتحاق بفلسطين ووزعوا منشورات تدعو الاهالي لهذا الغرض في القرى التي دخلوها .

أوقف احتلال الصهاينة لفلسطين تطور التجارة والحياة الاقتصادية

عموما في الجنوب وانهار الازدهار الذي عمرت به أسواق بنت جبيل ومرجعيون والنبطية .

وانكفاً التطور الاقتصادي على نفسه ، الى اقتصاد عائلي صغير فاقدم لمقومات النمو في السوق التي كانت له من قبل . وهاجر أثر عام ١٩٤٨ قرابة ثلاثون الفا من الحرفيين وعمال الحرف من قضاء بنت جبيل تحت وطأة الازمة الاقتصادية الخانقة التي أورثتها نتائج الاحتلال الاسرائيلي .

واستبدل مرفأ حيفا لتجارة سوريا ولبنان بمرفأ بيروت . وتحولت الى بيروت تجارة الترانزيت السورية وانزوى الجنوب على هامش الدورة الاقتصادية الرأسمالية الناشطة في المركز اللبناني . وكان اتصال الجنوب من قبل بمرفأ حيفا الذي طوره الانكليز الى حد منافسة مرفأ بيروت واحتجاج الرأسمالية اللبنانية على ذلك عام ١٩٣٠ .

وهكذا سدت اسرائيل للجنوب منفذه البري . وسد الاهمال الرسمي اللبناني منفذه البحري ، وباتت موانئ الجنوب أرثا فولكلوريا لا غير .

ولم تكن الرأسمالية اللبنانية بعد من صلابة العود ما يتيح لها أن تعيد ربط الجنوب بها مشكلة التعويض عما فقده . فبقي بين أواخر الأربعينات وأواسط الخمسينات في ركود اقتصادي سمح للحياة الاجتماعية أن تراوح عند اقتصاد عائلي صغير شكل في امتداد تلك الفترة العنصر المغذي للعصية العائلية والعلاقات العشائرية والحصن المنيع في وجه التحولات الاجتماعية .

وأفسح المجال أمام خواء الحياة الفكرية والثقافية التي ناعت بثقلها على الجنوب . فبقيت الامية غالبية . مثلما كانت عليه زمن ولاية بيروت في العهد العثماني ★ . وظلت الحياة الثقافية تحت سقف

★ راجع : ولاية بيروت : رفيق التميمي ومحمد بهجت .



جهود العلماء الشيعة الفردية وحلقاتهم الفكرية الشرعية . وانحصرت مشاركة الجنوبيين الريفيين في الادارة والحياة السياسية العامة ببضعة أسماء من الزعماء التقليديين . وظل التحالف الديني - الزمني قائما بين علماء الشيعة وسياسيها .

بدأت الحياة الاقتصادية تتجه للمحور حول زراعة رأسمالية التسويق حرفية الانتاج هي زراعة التبغ . واستقطبت جزءا يسيرا من القوى العاملة بلغ في مطلع السبعينات حوالي ثلاثين الفا من المزارعين ما يزالون ينتجون وفقا لعلاقات انتاج شبه اقطاعية . في حين عرفت البستنة في قطاع الفواكه والحمضيات بعض الرسمة في السهول الساحلية .

لكن اصحاب الرساميل لجأوا في الغالب الى استثمار رأسمالي يحافظ على شكل الملكية عبر استئجارها وضمانها . كي لا تدهم توظيفاتهم الثابتة تقلبات السوق الخارجية . مما أعاق عملية تمركز الملكية وتطوير شكل الانتاج الزراعي .

### الاستقلال اللبناني يستقل عن هموم الجنوب :

في حديثه الى الجنوبيين بعيد الاستقلال بقليل عام ١٩٤٥ . وقبل أن يتم جلاء القوات الاجنبية ، كشف الشيخ الرئيس بشاره الخوري عما تنطوي عليه سياسة عهده ، والطبقة التي فازت بالسيطرة على مقدرات البلاد ، وفي دار الوزير أحمد بك الاسعد في الطيبة قال :

« نحن نريد أن تبقى البيوتات الكريمة كبيت أحمد بك الاسعد معززة مصونة . لاننا نعرف مكانتها في لبنان . . لا ترتكبوا هنا الخطيئة التي ارتكبتها نحن في مناطقنا المسيحية . احترموا زعماءكم والتفوا حولهم لانه يصعب عليكم أن تبلغوا أفرادا ما تبلغونه جماعات . ومتى كنتم ملتفتين حول رجل وكان هذا الرجل فضلا عن

الثقة والمميزات التي ورثها عن الاباء والاجداد ، متحليا بالاخلاص والتفاني والوداعة فهذا أمر لا يستهان به » . ( خطب: ص ٧٠ - ٢٦ ت ١ ) .

وهكذا كان ممثل البرجوازية اللبنانية الاول يعلن أن الثورة الديمقراطية في جبل لبنان ضد مقاطعبيه سياسة غير قابلة للتصدير الى جميع المناطق . مثلما كانت أفكار البرجوازية الأوروبية عصر الانوار غير قابلة للتصدير الى مستعمراتها . كما ويعلن زعيم الاستقلال الاول عن تحالف ممثلي برجوازية بيروت والجبل مع اقطاعيي الملحقات .

ولم ير الرئيس في حرمان الجنوب وبؤسه سوى كفاءة علمية مفقودة . هي الان في طور التحقق بنعمة العهد الاستقلالي معلنا أن الطوائف ستعطى حقوقها . . . الامر الذي يقتل الطائفية . ★

« فالطائفية سلاح يستخدمه من ليس له سواه وسيلة لبلوغ المركز الذي يريد . » وما حيلة الرئيس في ارادة تاريخية قاهرة حجت النعمة هنا وسخت بها هناك .

وفي لفتة منه الى فلسطين دعا للدفاع عنها ايماننا بلبنان . لاننا هنا بفعل القدر الجغرافي « متاخمون لفلسطين مهددون بتسرب الصهيونية . والصهاينة اذا بدأوا بالارض انتقلوا منها الى العقل ووصلوا الى القلوب » .

كانت فلسطين في أيدي الصهاينة خطرا محدقا بلبنان أو ببرجوازية وسيطة طرية العود تستذكر تاريخها بفينيقيها . وفينيقيها كما يعي ممثلو البرجوازية انذاك حضارة تجارية انهارت مع صعود تجارة

★ الشواهد المذكورة من كتاب « خطب » للرئيس بشاره الخوري - صدر عام ١٩٥٥ .



اليونان والاطاليين المنافسة في المتوسط . وها هي الصهيونية القادمة الى فلسطين تهدد فينيتيا اليوم بمصير مماثل ، فكتب ميشال شيحا يقول : ( لبنان في العالم .. ص ١٣٩ - ١٤٠ ) :

« أما على الصعيد الاقتصادي فان اسرائيل لا يلين لها عيش دون صناعة ضخمة . فاذا هي بما لديها من وسائل تقنية ومالية اكتسحت جوارها وقضت على كل شيء . واسرائيل لا تستطيع التنفس بدون تجارة مكثفة . وها ان تجارتها تفيد من علائق لها وصلات ومن حضور في العالم واسواق ومن استلافات شتى وتيسيرات ... . ولسوف تكون التجارة الاسرائيلية في شرقي المتوسط بفعل ما توفره لها الدولة من حوافز تحديا لا مناص منه لكل المشروعات ، لكل المرافئ .. لكل التجارات والوكالات . لكل المهن التي تقتضي خدمة معينة . » .

وبناء على هذا الحس الطبقي العفوي بالمصلحة على حد تعبير كمال جنبلاط كان للبرجوازية اللبنانية موقفها مشاركة في حرب ١٩٤٨ . لكنها لم تستطع الذهاب الى اعمدة هرقل . فصاحب الدكان قلما يستطيع اختيار زبائنه . ولبنان بقدره الجغرافي « المر » لا يقاوم القوى التي سلكت عبره للسيطرة على المنطقة . بل انه ينحاز الى الاقوى . هكذا لخص الخوري وشيحا وجورج نقاش وغيرهم سياسة لبنان . وهكذا ينهدر عنفوان البرجوازية اللبنانية القومي امام اسرائيل اليوم .

وبرغم ما افاعت افكار شيحا على لبنان الكبير عام ١٩٤٣ ، ظل الجنوب اكثر المناطق بين الملحقات والمستعمرات تخلفا اقتصاديا واجتماعيا عن الحاضرة الاستعمارية ( بيروت والجبل ) في التعبير الشيخوي . وظل الجنوب في النظرية اللبنانية الرسمية تلك الكأس الفارغة على مائدة الصراع مع اسرائيل . اذا ملأها لبنان سارعت اسرائيل لالتقاطها .

وبالسياسة الرسمية هذه ظل الجنوب منطقة معلقة الانتماء

للكيان اللبناني ، وفي منطق ضمني انه لا بد واقع تحت الهيمنة الاسرائيلية ، حتى حين انتعش قطاع الخدمات وتوسعت سوق الرأسمالية اللبنانية في الستينات ويوم اقامت الدولة على كل حجر عتيق مزارا سياحيا بقي مطلب الجنوب وما يزال الطريق الدولي والمرمى .

ومنذ عام ١٩٥٤ استشعر صائب سلام الحاجة لسياسة انمائية تأخذ بعين الاعتبار « مصلحة البلاد العامة » . ففي محاضرة له في « الندوة اللبنانية » حول بناء الدولة في لبنان قال : « كانت توزع الى اليوم اعتمادات الطرق والمشاريع المائية في الميزانية تمشيا مع سياسة الاسترضاء ، والتقليد العشائري . وكانت الحكومة ترصد المال الوفير للطرق والاعمال المائية وتبعث بالمخصصات الى المجلس النيابي تاركة للنواب أفرادا وجماعات حرية تقسيم الاعتمادات على أهوائهم الخاصة دون النظر الى مصلحة البلاد العامة » .

وتفتتت عبقرية أحد أقطاب العهد الشهابي فيما بعد — فيليب تقلا — عن القول المأثور الذي اندرج في عماد السياسة الشهابية قال عام ١٩٥٤ : ( الندوة اللبنانية ) : « وانني ممن يؤمنون ان شق طريق وفتح مدرسة ومد قسطل للماء وري مساحة من الارض وتشديد بناء وانشاء مصنع وانصاف الضعيف من القوي والفقير من الغني اشد وقعا واكثر اقناعا واقرب الى الغاية التي ننشد من مائة جدال حول الفينيقيّة والعروبة . والف حوار حول الاتحاد والانفصال » .

« والاولوية لتلك المناطق التي عادت الى لبنان بعد نأي وتبدو متخلّفة عن الركب لان نعمة العلم التي هبطت على العاصمة والجبل بفضل الرسائل الاجنبية ، ونعمة المال الذي تدفق على يد المفترين والمصطافين والسياح لم تشملها بعد على شكل يساويها من حيث التطور ببيروت أو بلبنان القديم » .

« ومع ان في هذه « الملحقات » من الاراضي الخصبة ومن منابع الماء ومجاريه ما يجعلها — اذا احسن استثمارها — العمود الفقري



في الاقتصاد اللبناني بل في الكيان ذاته » .

هذا الجدال الى حين بين الفينيقية والعروبة والاتحاد والانعزال بعد انفجاره عام ١٩٥٨ ، ونهجت الشهابية على تغليب السياسة التي نصح بها فيليب تقلا احد تلامذة شيحا . وتحولت الملحقات وعلى رأسها الجنوب الى خزان يرفد البرجوازية اللبنانية النامية يدا عاملة للصناعات . وحاصلات زراعية للتجارة . وضرائب . وكهرباء . وماء ... واشباه بروليتاريا تحرس ناطحات السحاب في بيروت ، وموظفي تنظيفات ... وتجمعت في حزام البؤس من ضواحي بيروت كتل بشرية جنوبية المصدر بالغالب ، وشكلت امتدادا لبنانيا لمخيمات الفلسطينيين وأخذت تهدد بؤر الازدهار اللبناني في بيروت ومداخل الجبل بضغط سكاني كثيف يحمل في حناياه كل مضامين التناقض والنقض . فكان في طليعة العوامل التي فجرت حرب ٧٥ - ٧٦ ، وكان وقودها . وشكل اختراقا لبعض مقومات الانعزال اللبناني القائم على لون من الاستقلال الطائفي الاقليمي .

لكن هذه التجمعات الشعبية - العمالية ، حافظت على صلات وطيدة بالريف ، ونقلت معها تقاليد الحياة الريفية ، واتخذت ضواحي العاصمة شكل احياء قروية تقاسمت زواياها عائلات ، فمناطق ، فولايات سياسية .

وفي غياب الاستقرار النسبي المهني ، ولحدثة الانخراط في شروط الانتاج الرأسمالي ، ولماخ العلاقات الاجتماعية ، ولقائون انتخابي يحرم التمثيل السياسي في مكان العمل أو السكن ، كل ذلك لم يسمح لهذا التحول الاجتماعي أن يعي ذاته وعيا طبقيًا ، مما سيوفر شروطا أفضل للوعي العفوي الطائفي . ومما سيمكن لهجرة مضادة الى الريف أن تستغري في حرب السنتين ، وتستعيد الكيانات الطائفية الإقليمية المتجاوزة خارطة توزيعها السابق وتضفي على الحرب الاهلية شكل حرب المواقع المديدة على حدود الكيانات السياسية - الطائفية وتغيب دلالة الجبهة الاجتماعية المفتوحة منذ عام ١٩٦٩ وهجوم دبابات السلطة على سكان المكس .

## الهدنة الشهابية

انصب برنامج الشهابية على توسيع السوق الداخلية اللبنانية بتنظيم قاعدتها التحتية . الطرق - الماء - الكهرباء ... وبايجاد ادارة موازية تمكن لجهاز الدولة أن يغلب ما أسماه صائب سلام « مصلحة البلاد العامة » وحقيقته مصلحة طبقية موحدة ، للتحايل على اقطاع سياسي يشدها للتفتت والانقسام عاد بعد حرب ١٩٥٨ الى السلطة معافى .

وشكلت الشهابية ظاهرة « بونابرتية » اتت تجعل دكتاتوريتها نقطة التوازن الاساسية بين القوى المتصارعة .

وككل ظاهرة « بونابرتية » ارتكزت الى تشكيل قوة خاصة بها كانت نواتها الجيش ، وتحلقت من حولها فئات متوسعة من الازلام والمحاسب ومن الموظفين في جهاز اداري عرف بعد ١٩٥٨ قفزة هائلة .

فقد تطور عدد الموظفين الرسميين من غير العسكريين من ١٤ الفا قبل ١٩٥٨ الى ٣٢ الفا بعد ١٩٥٨ والى ٦٠ الفا عام ١٩٧٠ .

وكانت البيروقراطية ، كشريحة اجتماعية - مصدر قوة وارتكاز السلطة الشهابية بين قوتين بلفتا توازنا عربيا ودوليا .

وجاءت حكومة رشيد كرامي الائتلافية الرباعية (١٤ ت ١٩٥٨) بالاضافة الى العويني ، والجميل ، واده ، لتؤكد تسوية ١٩٤٣ الطائفية بين القاتماتيتين السنية والمارونية على حد تعبير كمال جنبلاط ، واكتفى بأن يكون للشيعية رئاسة المجلس النيابي .

ظل مجلس النواب أداة الامن السياسي - الطائفي ، فدخلته جميع القوى الفاعلة في حرب ٥٨ ، كي لا تحترق خارجة ، وزاد عدد النواب من ٤٤ الى ٩٩ ، وانفتحت جنة الحكم في البرلمان « أمام الكفاءات من كل الطوائف » وانعقدت تحالفات رجال المال من كل



الطوائف مع ممثليها السياسيين التقليديين . واستوعب المشروع الشهابي الفئات القائدة الجديدة في الطوائف . ومنذ ١٩٥٨ دخل أثرياء شيعيون جنوبيون كالعرب وفواز وحمود . . الى الندوة اللبنانية .

إذا كان مجلس ما بعد ١٩٥٨ أخذ يستوعب بعض وجوه البرجوازية الشيعية الجنوبية التي حققت ثرواتها بفعل الاغتراب والتجارة ، فانه لم يستطع أن يستوعب التطور الاجتماعي الاعمق بفعل توسع السيطرة الرأسمالية جنوبا والهجرة الداخلية الى ضواحي بيروت وتوسيع التعليم الرسمي . فظل القانون الانتخابي متوقفا عند زمن ١٩٤٣ يحجز التعبير عن نتائج تكون اجتماعي مصلحي جديد ، وظلت الإدارة وفق غلبة النفوذ تستبعد ما أمكن الكفاءات العلمية الشيعية الجديدة بخاصة بعد تقلص فرص استيعابها لاحقا .

شهدت الستينات ركودا في المعارضة الشعبية ظاهرا . واستطاعت الشهابية أن تفرض سلاسا سياسيا قسريا . وبرغم ذلك لجأت الحركة الشعبية الى الاشتكاء للحكام . فبين ١٩٦٠ و ١٩٦٤ تلقى مجلس النواب ٨٩٥ عريضة وبرقية احتل الجنوب مركز الصدارة فيها بنسبة ٢٧٪ بين المحافظات . كما احتلت قضايا الزراعة عموما والتبغ خاصة أهم الشكاوى والمطالبات بمعدل ١٥٪ .

فالشهابية هدنة اجتماعية - سياسية لا أكثر . محاولة تحايل على تناقضات توسع سيطرة الرأسمالية اللبنانية اقتصاديا وضيق رقعة دائرة نفوذها السياسي واثرها على العلاقات الاجتماعية . والتحايل على التناقض بين مزيد من اتكال اقتصادي على العرب ومزيد من العزلة السياسية والثقافية عن العروبة ومستوحياتها .

### قضية الجنوب وقضية الشيعة

لم يعرف الجنوب عهد الدولة العثمانية استقلالا كيانيا خاصا مثل جبل لبنان كما يحاول التاريخ الشيعي المعاصر أن يثبت . فقد جرى

تنازعه بين الجبل وبيروت وعكا . وحين الحق ببلبنان الصفير عام ١٩٢٠ كان بمثابة المدى الحيوي لبرجوازية جبل لبنان وبيروت . وحين طالبت بجزء منه ، فبا لحجة التاريخية التي ترقى الى عهد فخر الدين متسلم صفد الذي تبعها جبل عامل غالبا ، أو صيدا التي تبعت أحيانا إمارة الجبل .

وظل الجنوب في الفكر اللبناني « متسلمية ملتزمة مضمونة » ولم يدخل في أساس همومه ولا في نظرية الكيان اللبناني الا بوصفه مساحة ضرورية من الارض ، وعينا أساسيا من السكان كما يعلن فيليب حتي وسواه من مؤرخي اليمين .

ولبنان هو البحر والجبل ، أو بيروت وجبل لبنان كما في تعريف شيحا وجواد بولس وشارل مالك من مفكري البرجوازية اللبنانية، حيث لا حضور فيه للجنوب . . ★ فالجنوب أكثر اتصاله بسوريا وفلسطين . ★★ أي بمراكز الانتاج والتبادل المحلي - العربي ، لا كما هو حال الجبل وارتباطه بالسوق الأوروبية . زراعة الحرير وتجارته .

وأذا كان التأريخ الماروني الطائفي قد جعل تاريخ لبنان تاريخ طوائف وصولا لتلك المطابقة بين الكيان - لبنان ، الطائفة المارونية، فقد جعل الطوائف الأخرى تنظر اليه بنظرة طائفية معارضة . بحيث نجد أنفسنا حيال روايات طائفية متكاملة ، تكاد تحمل نفس القسّمات والمنطلقات . ومؤرخو الشيعة كسواهم يستخدمون اللغة نفسها .

ولعل المقارنة بين مختلف محاولات التأريخ هذه تكشف عن صفات مشتركة للطوائف ، في حين أن الواحدة منها تدعيها لنفسها فقط .

★ شيحا : لبنان في شخصه وحضوره - ص ١٦٢ و ١٦٣ - وجواد بولس في تاريخ لبنان ص ٢٢٢ ، وشارل مالك في لبنان ذاته . ص ١١ الخ . . .  
★★ يذكر آدم متر أن المناطق القريبة من جبلي عامل كان أهلها شيعة ، ( طبرية - نابلس - قدس - عمان ) . ( الحضارة الإسلامية : ج ١ ص ١٠٣ ) ويذكر المعلق ( دواني القطوف ص ٢٨ ) وفي السهوة مقام لسلطان الفارسي وفي اللجاء لعمار بن ياسر . والصحابية زاروا جبل عامل كابي ذر و سلمان - الحركة الفكرية والأدبية ، محمد كاظم مكي ص ١٧ .



كتب محمد جابر ال صفا ، في تاريخ جبل عامل يقول : (ص ٨٢) :  
« ولقد كان توالي الحروب الطاحنة وتآلب الطوائف المجاورة على  
أبناء جبل عامل ، لاختلافهم عنهم عرقا ومذهبا ، سببا أوليا لوقوفهم  
وقفة المستميتين دفاعا عن أوطانهم وحفظا لكيانهم ... وقد خلق  
هذا ... شعبا حربيا باسلا » .

تتداعى الى الفهن فورا شواهد مماثلة لمؤرخين آخرين من طوائف  
أخرى . ولعل أبلغ الصور عن التأريخ الشيعي ما كتبه الشيخ علي  
الزين في مؤلفه « للبحث عن تاريخنا في لبنان » بخاصة في فصل  
« المقاتلة في عهد فخر الدين » حيث يذهب مذهباً مستقلاً منفرداً به  
الى أن فخر الدين الدرزي وحلفائه من النصاري يتآمرون لاستئفاف  
الحمالات الصليبية على الأراضي المقدسة بالعمالة لدول أوروبا .  
ويتلخص التأريخ المعني بمجموعة من أعمال التآمر والدس والفساد  
والجاسوسية .

من هنا كان هذا القبول الضمني بجدوى وأهمية إعادة قراءة  
تاريخ جبل عامل من خلال سلسلة محاضرات « المجلس الثقافي  
للبنان الجنوبي » . فتاريخ هذه المنطقة يواجه سياسة رسمية تعمل  
فيه طمسا ومحوا ، والتأريخ الطائفي يكتب من ضمن الفكر السائد  
مهما بدا معارضا له في الظاهر .

فتأريخ الماضي ليس سوى محاولة لوعي الذات في الحاضر  
وصوغا لمشروع المستقبل . وعليه يستحضر من التأريخ الأزياء التي  
تلائم أجسام الممثلين الحاضرين الأحياء .

ان تردد التأريخ الشيعي المعاصر حيال انتماء الجنوب اللبناني  
بوصفه الضمانة الوحيدة لعروبته تجاه الخطر الاسرائيلي المحدث  
ليؤكد مدى تأثير الفكر اليميني السائد الهادف اليوم الى التشكيك في  
هوية بعض المناطق اللبنانية من أجل تأكيد هوية لبنان الطائفية  
المارونية والارتداد على ما حققه لبنان نسيبا منذ عام ١٩٢٠ من  
تشارك .

كل هذا يؤكد التلازم بين وحدة لبنان وعروبته ، كما بين صهيئته  
وتقسيمه .

## الجنوب في حريق الازمة الاجتماعية

### واحتدام النضال الوطني

شكلت أزمة انترا وهزيمة حزيران ومعارك التضامن مع المقاومة  
بين ١٩٦٦ و ١٩٦٩ ، انعطافا مهما في مسار الواقع اللبناني الذي  
عرف غلبة قسرية لضوابط الصراع الاجتماعي والسياسي منذ  
١٩٥٨ .

في مواجهة القمع الشهابي لجأ الاقطاع السياسي المتضرر للتحالف  
المباشر مع السلطات الدينية والاحتفاء خلف ترسانة الطوائف . ففي  
صيف عام ١٩٦٧ بدأ البطريرك الماروني في احتفال عينطورا يشن  
هجومه على السلطة . وعام ١٩٦٨ استطاع الحلف الثلاثي الماروني  
( شمعون - الجميل - اده ) أن يحقق نجاحا مهما في انتخابات  
خضت في أجواء التسمير الطائفي للضغط على السلطة التنفيذية  
التي اتهمت بالمساومة الطبقية والوطنية مع الناصرية .

وإذا كان التحالف الماروني أول من لجأ الى كيانه الطائفي وحصونه،  
فانه لم يبق وحيدا بعد ٦٨ . فسلك جميع أقطاب المعارضة الى  
هذا الأسلوب حتى بلغ الذروة عام ٧٤ بانطلاق شعار المشاركة  
« السني » وحركة المحرومين « الشيعة » .

ليس غريبا أن تلجأ المعارضة الفوقية في صفوف السلطة الى سلاح  
الطائفية . طالما أن المعارضة الطائفية باعتراف الدولة نفسها  
معارضة مشروعة ومقبولة . والطوائف أشبه بالسلك الرسمي  
الحكومي ، من يتسلق الى مراتبها يملك حصانة الموظف الرسمي .  
والحصانة هذه أشبه بمنطوق المثل الشعبي القائل : « بأس الأسد  
بنيابو وابن الحكومي بتيابو » . فخارج الطوائف ، المواطن فرد  
ضعيف بلا حقوق ، وداخلها « دولة في الدولة » .

وليست هذه مفارقة بسيطة كما يظن . فتظاهرة سلمية تقودها  
أحزاب وطنية عام ٦٨ - ٦٩ تطالب بتحسين الجنوب وتسليح قراه



تقمع بأشد ما يكون القمع . وتظاهرة مسلحة لعشرات الألوف يقودها رجال الدين من طائفة معينة تؤدي لها الدولة السلام .  
تساعدت الاعتداءات الاسرائيلية . وعام ٧٢ بلغ النزوح الجنوبي حوالى ٢٥٠ ألفا وفدوا الى ضواحي بيروت . واشتد العدوان عام ٧٤ حيث بلغ ما يوازي مجموع نتائج سنوات ٦٨ - ٧٤ . وضربت موارد عيش السكان الحدوديين . وانشل النشاط الزراعي والرعي مما جعل السكان يبيعون القسم الاوفر من ثرواتهم على هذا الصعيد .

وبدأت قضية الجنوب تأخذ أبعادا وطنية وقومية خطيرة . في ظروف التهاب المسألة الاجتماعية التي يقع عبؤها مضاعفا على الجنوبيين والشيعة بنوع خاص .

في هذا المناخ ظهرت حركة المطالبة بحقوق الشيعة يتزعمها الامام الصدر . وكانت بمثابة الولادة السياسية للطائفة الشيعية في تاريخ لبنان المعاصر .

اقتصرت الحياة السياسية في الجنوب تاريخيا على تيار وطني عروبي تقوده مدينة صيدا . في حين ظل الريف الجنوبي تتنازع الزعامات التقليدية المعروفة كبيت الاسعد وعسيران ، وحلفائهما . ومنذ الاستقلال حتى بداية السبعينات لا نستطيع أن نصنف حزبا لبنانيا فاعلا جمهوره الرئيسي جنوبي - شيعي . أما حزبا النهضة ( أحمد الاسعد ) والطلائع ( رشيد بيضون ) فلا يعدوان كونهما محاولة لتجديد الزعامة الشخصية كما هي حال الديمقراطي الاشتراكي اليوم .

لقد ظل التمثيل السياسي الشيعي ملحقا بالتمثيل السني لمسلمي الساحل أو ولاية بيروت . وفي معركة الاستقلال برز اسم واحد هو عادل عسيران . والتحق زهير عسيران بحزب النجادة السني البيروتي .

وحين انعقد بروتوكول الاسكندرية عام ١٩٤٤ المهد لدخول لبنان جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥ لم يكن في عداد الوفد اللبناني ممثل للشيعة . والى عام ١٩٦٧ ( ١٩ ك ) حتى نظمت المحاكم الجعفرية

التي كرست حقوق الشيعة في بناء مؤسساتهم الطائفية الخاصة بالاستقلال عن السنة ، ومنحهم القانون حق الارتباط بالمراجع العليا خارج لبنان .

فمنذ عام ١٩٣٨ نظم الانتداب قانون استقلالية الطوائف لصالح تكريس استقلالية الطوائف المسيحية ومؤسساتها . واحتج المسلمون على معاملتهم كطوائف فأوقف تنفيذ المشروع لجهتهم عام ١٩٣٩ .

فقد رفض السنة أن يعاملوا كطائفة . وقبلوا عام ١٩٥٥ وصدر قانون تعادل عام ٦٧ بالنسبة للسنة والشيعة وقبلهم الدروز عام ١٩٦٢ .

كل هذا يوضح كيف أن الموارنة تبادلوا الادوار مع السنة في فرض منطق الطائفة الاكثر رعاية ورجحانا .

وفي غياب المؤسسات الشيعية العامة لجأت هذه الطائفة الى التحصن في مؤسسات عائلية ذات صفة رعائية اجتماعية درءا لخطر ضعف المواجهة الفردية في مجتمع الطوائف . فبلغت الطائفة الشيعية عام ١٩٦٩ أعلى نسبة بين الطوائف في عدد الجمعيات العائلية المرخص بها ، في حين حافظ الدروز على نفس النسبة تقريبا بين عامي ١٩٣٠ و ١٩٦٩ ، وتراجعت هذه الظاهرة لدى الموارنة والسنة ★ . مما يفسر أن أشكال التضامن العائلي هي مقدمات تشكل التضامن الطائفي الاوسع .

كانت نسبة التمثيل الطائفي في الوظائف الادارية عام ١٩٤٦ كما يلي :

الموارنة ٣٨٧ بالمئة - السنة ٢٩ بالمئة - الشيعة ٢٢٣ بالمئة - الروم الارثوذكس ١٩٣ بالمئة - الروم الكاثوليك ٤٣ بالمئة - الدروز ٦٤ بالمئة .

وفي عام ١٩٥٥ أصبحت النسبة كما يلي :

★ راجع الجدول الاحصائي : د . رياض نجيب الريس - ازمة بناء الوطن - ص ١٠٧ .



الموارنة ٤٠ بالمئة - السنة ٢٧ بالمئة - الشيعة ٣٦ بالمئة -  
الارثوذكس ١١٧ بالمئة - الكاثوليك ٩٢ بالمئة - الدروز  
٧ بالمئة . ★

في حين ان احصاء ١٩٥٠ يدل على ان الشيعة يشكلون نسبة ١٨ بالمئة  
من السكان والموارنة ٢٩ بالمئة والسنة ٢٠ بالمئة والكاثوليك  
والارثوذكس ١٦ بالمئة والدروز ٦ بالمئة . . . ★ اي ان الشيعة  
في احسن الاحوال قد حصلوا على سدس (١/٦) الحصة المفترضة  
لهم في الوظائف الرسمية . واخذ الموارنة والسنة ما تبقى من حصة  
الشيعة .

تراكمت اذا مستويات الضغط الاجتماعي حين انطلقت حركة  
المحرومين شتاء ٧٣ - ٧٤ واخترقت هذه المستويات مجتمعة .  
وامكن لها ان تدعي تمثيل الفجيرة الجنوبية حيث يحتشد قسم هام  
من ابناء الطائفة الشيعية .

( المشاركة السياسية في السلطة - الاعتراف بالكيان الخاص  
والمؤسسات الطائفية المستقلة - حقوق الشيعة في جهاز الدولة  
الاداري - حصة الجنوب من الانماء والخدمات الاجتماعية -  
( التعليم الرسمي والطبابة والمرافق العامة ) - القهر الاسرائيلي  
والاھمال الرسمي والتسلط الطبقي الاقطاعي والراسمالي - ضغط  
مطالب الفئات الكادحة التي يشكل الشيعة اكبر الاجسام الطائفية  
فيها من عمال الصناعة والارض والبناء والخدمات . الخ . . )

لم يكن للشيعة مشروع سياسي طائفي مستقل ، كما هو حال  
السنة والاستقواء بالمحيط السني، والموارنة والاستقواء بالعلاقات  
التاريخية والراھنة مع الغرب .

وكان عنصر التوحيد الطائفي عند الشيعة زعامة تقليدية من  
الاقطاع السياسي يرتكز الى تحالفات عائلية اوسع ويتغذى من دعم  
السلطة المباشر . ومن زعامة دينية شعبية وثيقة الاتصال بجمهورها،

★ باسم الجسر : الميثاق ٠٠٠ ص ٢٢٨ .

★★ فزاد اسحق الخوري - ندوة الكتائب حول الطائفية ، اب ١٩٦٨ .

لكنها ضعيفة التأثير بافتقادها للمؤسسات الاكبركية الخاصة كما  
هي حال الموارنة والسنة مثلاً .

شكل هذا الواقع مصدر انخراط مباشر لهذه الفئة الدينية في حياة  
جمهورها ، لكنه كان مصدر ضعف في التأثير المستقل بالتنافس مع  
الزعامات التقليدية ، وانضاف الى غياب عنصر المثقفين المدنيين  
كشريحة اجتماعية مؤثرة تصوغ مشروع توحيد سياسي طائفي .

من هنا لم يكن للشيعة عصبية قومية مذ كانوا اقلية مذهبية اواخر  
عهد الدولة العثمانية وحين أصبحوا اقلية طائفية عهد الانتداب  
والاستقلال . وكأقلية طائفية الحقت بمركز الهيمنة الماروني والراسمالي  
المتقدم ما كانوا مؤهلين ، كما هو حال سنة المدن بموقعهم الاقتصادي  
لبرنامج سياسي يطمح الى السلطة . فانطلقت هذه الطائفة على  
تراثها الديني الاثلوي الذي شكل أحد اهم عناصر تماسك عصبيتها  
الدينية . ومن هنا صدقت الملاحظة : « ليس في الطاولة عصبية  
قومية بل فيهم عصبية دينية » .

لم تستطع الزعامة الدينية ان تتصدر القيادة السياسية الا بعد ان  
أنهكت المقاومة الفلسطينية نفوذ الاقطاع السني وسيطوته وسياسة  
الدولة في عسكرة الجنوب ، ومع تضافر التهاب المسألة الاجتماعية  
واحتدام النضال الوطني . وقدمت الحركة الدينية نفسها كمخلص  
حين لم يكن هناك من برنامج وطني ديمقراطي اخر يستقطب أوجاع  
الجراح الاساسية . فالمقاومة اختصرت طريق التحرر الجماهيري  
من « السلطة » دون أن يكون البديل جاهزاً لتقبل النتائج . وكانت  
الحركة الجذرية ما تزال تتلمس مداخل واقعية لصوغ برنامجها  
النضالي العام .

في تلك الظروف أمكن للقيادة الطائفية الدينية ان تلتقط الراية  
وكادت تنفرد بها لولا احتدام الصراع وانطلاق الخارج الاصلاحية مما  
أطاح سلفاً بكل برنامج يقف عند حدود مشروع مساومة طائفية  
كالتى حصلت عام ١٩٥٨ .

من هنا شكلت حركة المطالبة بحقوق الشيعة رافداً من روافد  
العمل الوطني الديمقراطي وان لم تستطع اختزاله كله . ولهذا



حرصت الحركة الوطنية وما تزال على التفاعل مع حركة المحرومين دون تجاوز لحدود أي من البرنامجين واستقاط الحواجز بينهما .  
وإذا كان صحيحا ذلك التلازم بين قضية الجنوب وقضية الشيعة، إلا أن الجنوب هو القفل والمفتاح في المصير الوطني كله واعتبارات منع تكريس الحاقه بالهيمنة الصهيونية عن طريق الادوات الانعزالية أم مباشرة فوق كل اعتبار وان ضاعف هذا من العبء على سكانه .  
والخيار مطروح الان بالرموز الشيعية ، أن نجعل من الجنوب كربلاء ثانية ، أو أن ندافع عن مقامي أبي ذر . !! ★

### أزمة انتماء الجنوب

#### في أزمة وحدة الوطن

يواجه الجنوب اليوم ما يمكن تسميته أزمة انتماء / ليست خطورتها كامنة في تجدد الحلم الاسرائيلي في السيطرة على الجنوب وحسب — على افتراض بدهاة الموقف الاسرائيلي — ولكن لتلازمها وأزمة وحدة لبنان .

وإذا كانت الوحدة اللبنانية منذ عام ١٩٢٠ على الدوام قلقة فإنها اليوم معلقة أصلا . وحين نضفي على وضع الجنوب الراهن بعض التخصيص فبوصفه يتلقى مباشرة ضغط العسكرية الاسرائيلية ويشكل الميدان الحر المنفلت من كل قيد للخطة الانعزالية .

خارج هذه السمة السياسية تبدو مختلف المناطق التي الحقت بلبنان الصغير على قدم المساواة في معاناتها أزمة الانتماء للبنان الرسمي .

ولعل اكتشافنا المتأخر للعديد من القضايا الحيوية الرئيسية في لبنان : الطوائف والمناطق .. وحساسية المسألة القومية جعلنا نميل الى التعاطي مع وضع الجنوب بما يشبه عاشوراء دائمة . في حين كما يقول بوشكين ... « ان ضربات المطرقة تحطم الزجاج ، لكنها

★ في الصرغند وميس الجبل مقامان لابي ذر الغفاري .

تصنع الحديد » فالعبء الذي يتحمله الجنوب اليوم هو الثمن الذي لا بديل عنه للحفاظ على وتيرة أعلى من التعبئة والصراع مع اسرائيل والامبريالية .

لكن البحث بوضع الجنوب يطرح اشكالا اعم هو : ما نصيب النضال الوطني اللبناني من النجاح في استعادة المقومات الاساسية لوحدة لبنان ؟ . وبالتالي ما علاقة ذلك بالمجابهة القومية مع الامبريالية التي تتخذ هجمتها على المنطقة وجهين متكاملين : الاحتواء والتجزئة .  
ان لنا من مشاركة الحركة الوطنية على الانتصار عام ٧٦ تأكيد على جدية المشروع الوطني اللبناني الذي شقته الحركة الوطنية بين تيار الانعزال وتيار الالحاق القومي .

وبدون رجحان دور القوى الوطنية لبنانيا لا يمكن تصور اي مدخل لحل أزمة انتماء الجنوب لبنانيا وعربيا . والصمود الوطني هنا هو عامل مساعد على توفير شروط مجابهة قومية أفضل لاسرائيل وبالتوازن معها يمكن النفاذ بوحدة لبنان وعروبه .

وليس في تأكيد لبنانية الصراع أية ظلال « لكيانية » مزعومة ، في ظروف لبنانية وعربية لا تترك مجالا للشك بأن ما تستهدفه الخطه الامبريالية الاسرائيلية ليس مقاومة المد القومي الوجدوي الصاعد، بل ضرب التماسك الوطني القطري . وبديهي أن نتصدى للمهمات التي تواجه حركة التحرر الوطني العربية في ميادينها الفعلية .

ولعل في الشعار الذي نطلقه « لبنانية الجنوب شرط عروبه » مغزى كبير . ولعلني بينكم الان ارمز له . فانا ابن جبل لبنان الوطني — العربي الذي يضرب الحصار بقوة على بؤرة التقسيم والتصهين ، ويشكل متكا الجنوب في صموده ، لعل في هذا الدليل على أن محنة الجنوب ليست في لبنانيته ، بل محنة الجنوب في التخلي الرسمي عنه ومحنة لبنان في استقواء التصهين والانعزال على وحدته وعروبه .



## فهرست

صفحة	الموضوع	الكاتب
٥	على سبيل التقديم	حبيب صادق
١٢ -	ثورة صور :	
	ظاهرة التمزق السياسي في العهد الفاطمي	د. ابراهيم بيضون
٢٢ -	جبل عامل في العهد الصليبي والملوكي	د. محمد مخزوم
٥٢ -	جبل عامل في عهد الامارتين : المعنية والشهابية	
	العقيد الدكتور ياسين سويد	
٨٣ -	الكيان السياسي لجبل عامل قبل ١٩٢٠	د. منذر جابر
١٠٧ -	جبل عامل في إطار التجزئة الاستعمارية للمشرق العربي	
	د. مسعود ضاهر	
١٣١ -	الجنوب اللبناني برعاية الاستقلال	
	الاستاذ سليمان تقي الدين	



A  
956.92  
M233s

طبع على مطابع الكفاح

تلفون : ٢٤٩٠٣٠



## هذا الكتاب

... الى عهد قريب ، كان الكلام في تاريخ لبنان غير مباح الا « للنخبة » المختارة من قبل « السلطان » واهل بطانته .

من هنا جاء الكلام في هذا التاريخ مغايرا للحقيقة الموضوعية، جاء على قياس «السلطان» فنعكس موقعه الطبقي والفكري عوض ان يعكس الواقع الاجتماعي والحركة الفاعلة فيه سواء في هذا الزمن المحدد من عمر لبنان او ذاك .

وتبعاً لذلك اقتضت معرفة اللبناني بتاريخ بلده على الفتات الفاسد . وكان أكثر المتضررين ، من هذا الاعتداء على تاريخ لبنان، ابناء المناطق الملحقمة وخاصة ابناء الجنوب .

ذلك لان الجنوب لم يدخل في هموم الفكر اللبناني ولا في نظرية الكيان الا بوصفه مساحة ضرورية من الارض وعبئاً اساسياً من السكان .

من هنا جاء الترحيب باعادة قراءة تاريخ جبل عامل ، اي الجنوب ، من خلال المحاضرات التي قدمها « المجلس الثقافي للبنان الجنوبي » في موسمه الاخير ويعرضها اليوم في هذا الكتاب .

وتاريخ الماضي ليس سوى محاولة لوعي الذات في الحاضر وصوغاً لمشروع المستقبل .